الفصل الثانى

عرب عثمانيون

● عرب وأتراك فى ظل الاسلام — بل عرب عثمانيون — اسطورة الاستعمار التركى — تربص الدول الغربيه بالخلافه العثمانية — السلطان عبد الحميد المدى عليه — الفوائد المحيطة بالدولة العثمانية — عبد الحميد والخلافة العربيه — عبد الحميد والوحدة الاسلامية — الخلافة العثمانيه ملاذ الأقطار العربيه والاسلامية — ضعف مركز الخلافة — الدعوة الى الاصلاح — العرب لا يفكرون فى الانفصال — دعاة الاصلاح — الافغانى — محمد عبده — رشيد رضا — الكواكبى والاستبداد — رشيد رضا وأسعد داغر يؤكدان الوحدة للعربية العثمانية — سوء العلاقات العربية التركية فى عهد تركيا الفتاة — بوادر الانفصال — ظهور الجمعيات الاصلاحيه والسياسية — المؤتمر العربى الأول — الدعوة الطورانيه — كتاب ((قوم جديد)) — التهجم على الإسلام — جمال باشا السفاح — وضوح الاتجاه العربى نحو الاستقلال — جمعية الاتحاد والترقى تكشر عن نابها — طبيعة الجمعية ودور اليهود فيها — وزراء صهيونيون — الجمعية وبرنارد لويس — الجمعية تفتح الهجرة اليهودية الى فلسطين — مصر العثمانية — الاحتلال البريطانى — دنشواى — مصطفى كامل — الخلافة العثمانية عضد مصر — نذر الحرب — تشديد قبضة الاحتلال — نحو الخديعة .

* * *

عـــرب عثمانيون

لم تكن كلمة « عرب » معروفة فى القرن التاسع عشر بالمعنى الذى نعرفه اليوم ولم تكن تطلق ــ بوجه عام ــ الا على بدو الصحراء أو الســكان الذين يقيمون خارج المدن فى الشرق الأوسط[١] ومن ثم لم تكن هناك قضية عربية فى السياسة الدولية آنذاك وبالمثل كانت كلمة « أتراك » لا تتردد على الألسن الا نادرا ويقصد بها البدو من التركمان أو الفلاحين فى قرى الأناضول • وحتى كلمة « عثمانيين » لم تكن تحمل معنى قوميا وانما كانت فى مدلولها شبيهة بكلمة عباسيين أو أمويين أو سلاجقة • أما الأتراك فكان تعريفهم لأنفسهم أنهم مســلمون ، ولاؤهم للاسلام ولبيت « آل عثمان » [٢] وكذلك من تسميهم اليــوم « العرب » لم يكونوا يصفون أنفسهم بأنهم عرب ازاء الأتراك ، واذا كان لابد من أن نطلق عليهم هــذه الصفة فهم « عرب عثمانيون » لأن البلاد العربية انضوت تحت لواء الدولة العثمانية منذ مطلع القرن السادس عشر عندما سقطت ســوريا فى يد السلطان سليم فى موقعة « مرج دابق » (٢٤ أغسطس ١٥١٦) وتبعتها مصر فى ٢٣ يناير ١٥١٧ وألقيت الخطب فى اليوم التالى فى مساجد القاهرة باســم السلطان العثمانى[٣] ومن هناك امتد سلطان العثمانيين الى بقية أجزاء العالم العربى ، الحجاز واليمن والعراق[٤] •

---

(١) Z. N. Zein, The Emergence of Arab Nationalism, Beirut, Khayats, 1966 p. 38.

راجع التطور التاريخى لكلمة عرب فى الجاهلية والاسلام ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣٨ ــ ٤٢

(٢) B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press Paper Backs, 2nd Ed. 1968, pp. 1—2.

(٣) P.M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, Longmans, London, 1966 pp. 38 - 40.

(٤) انظر تفاصيل الفتح العثمانى فى الشرق العربى فى كتاب محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ــ ١٩١٤) مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ص ١٠٨ ــ ١٣٩ (غير مؤرخ) .

لم يكن ثمة نزاع بين العثمانيين وسكان الأقاليم العربية لأن العثمانيين انما أخذوا السلطة من المماليك فى الشرق العربى • ولم يكن العثمانيون فى نظر العرب غزاة فاتحين بل كانوا اخوة لهم فى العقيدة ، وحماة لدار الاسلام • كانت حروب الدولة العثمانية فى نظر المسلمين ــ عربا أم أتراكا ــ جهادا فى سبيل الله وكان العرب لا يرون الدولة العثمانية دولة أجنبية وانما كان اعتقـــادهم أنها دولتهم فهى دولة الاسلام(٥) وعاصمتها « اسلامبول »(٦) وكان هذا هو الشعور السائد الى نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين لم يكن العرب يلقون بالا الى أن الدولة العثمانية تركية بقدر ما كان يهمهم أنها اسلامية • ويفند الأستاذ زين نور الدين زين الزعم القائل بأن العرب ظلوا عاجزين تحت رحمة الأتراك أربعة قرون كما ينفى ما يردده بعض المؤرخين بأن الأتراك استنزفوا خيرات البلاد العربية وثروتها أو أن العرب لم يكن يسمح لهم بحمل السلاح أو الخدمة فى الجيش العثمانى بل يرى زين أن العـــرب كانوا شركاء فى الدولة دون تمييز ، شركاء فى الحقـــوق والواجبات (٧) وأن حكم العثمانيين كان حماية للعالم العربى والاسلامى ضد التدخل الأجنبى مدى أربعة قرون ، تمتعت خلالها الولايات العربية بقدر وافر من الحكم الذاتى عدا السنوات الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد وفترة حكم الأتراك الاتحاديين دعاة الجامعة الطورانية •

ومع ذلك كانت الدولة العثمانية مثقلة بمشاكلها الداخلية والخارجية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهى مشاكل سياسية واقتصادية وعسكرية تمثلت فى ضعف المركز المـــالى للدولة ورهن مواردها للدائنين الأوروبيين وثورات شـــعوب البلقان وتسلط الدول الأوروبية الكبرى الذى أدى الى ســـقوط تونس فى قبضة الحماية الفرنسية (١٨٨١) واحتلال مصر بمدافع الأسطول البريطانى (١٨٨٢) كذلك كانت مسألة الاصلاح الدستورى من أهم المسائل التى شغلت الأذهان ويعتبر اعلان

---

(٥) توفيق على برو ، العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٠

(٦) اى مدينة الاســـلام ،

(٧) Zein, op. cit. pp. 10 - 16.

دستور أحمد مدحت باشا فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦[٨] بداية لعهد الاصلاح المنشود ، أو هكذا يقول بعض الذين أرخوا لهذه الفترة ، كما يقولون ان الأقاليم العربية العثمانية كانت تتطلع الى المشاركة فى هذا الاصلاح والى التمتع بقدر أكبر من الحرية فى ادارة شئونها الداخلية ، ولكن السلطان عبد الحميد كان له رأى فى طبيعة هذا الاصلاح ودوافعه ، بل يذهب بعض المؤرخين الأوروبيين الى القول بأن عبد الحميد قبل اعلان دستور مدحت باشا لتجنب التدخل الأوروبى فى شئون دولته[٩] • ومهما تكن دوافع اصدار الدستور فانه ألغى فى ١٤ فبراير عام ١٨٧٨ وحل البرلمان الذى كان يضم ١٣٠ نائبا [١٠] ، منهم ١٨ نائبا يمثلون الأقاليم العربية ولم يدع الى الانعقاد الا بعد ثلاثين عاما (١٩٠٨) • وخلال هذه الفترة التى عرفت عند الكتاب والمؤرخين الغربيين « بالاستبداد الحميدى » حكم السلطان عبد الحميد بيد حازمة ، فى ظروف كانت الأخطار تحيط فيها بالدولة العثمانية من كل جانب •

ويحدثنا السلطان عبد الحميد فى مذكراته عن الغوائل التى أحاطت بالدولة فى ذلك الوقت والمكائد التى كانت الدول الأوروبية الكبرى تدبرها ضده ، طمعا فى الأسلاب التى تنتظرهم بعد انهيار دولة الخلافة الاسلامية ، كما يحدثنا عن بعض المسئولين فى حكومته بل رؤساء وزرائه ممن كانت تقف خلفهم دول أجنبية تغذيهم بالمال الحرام لتحقيق مآربها:

« كنت أعلم أن السر عسكر عونى باشا قد أخذ من الانجليز أموالا • ان رجلا من رجال الدولة يأخذ مالا من دولة أخرى لابد وأن يكون قد قدم لها خدمات • يعنى هذا أيضا أن خلع المرحوم عمى السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله ، لم يكن حقدا فقط من حسين عونى باشا ولكنه مرضاة لرغبة دولة أخرى أيضا »[١١] •

---

(٨) Robert Devereux, The First Ottoman Constitutional Period, Baltimore, 1963, p. 15.

(٩) Devereux, op. cit. p. 21.

(١٠) Devereux, op. cit. p. 261.

(١١) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة محمد حرب عبد الحميد ، دار الأنصار القاهرة ١٩٧٨ ص ٣٩

ويستطرد السلطان عبد الحميد قائلا :

« مدحت باشا أيضا مثل حسين عونى باشا اتبع سياسة مؤيدة للانجليز وكان دائما يفصح عن ثقته فى الانجليز »[١٢] .

« لم يهزنى شىء فى حياتى هزا ضخما قدر شخص يرتفع الى مقام قيادة الجيش أو الى مقام الصدارة العظمى — رئاسة مجلس الوزراء — ويقبل نقودا من دولة أجنبية »[١٣] .

« كانت الغوائل تحيط بالدولة فى ذلك الوقت . كنا فى حالة حرب مع الصرب والجبل الأسود ، والروس على وشك اعلان الحرب ، والدول الأجنبية التى اجتمعت فى الترسانة كانوا مؤيدين للروس ، يطلبون اعطاء الأرض للصرب والجبل الأسود والاعتراف باستقلال بلغاريا تحت اسم الاستقلال الذاتى »[١٤] .

« قال مدحت باشـــا : ان الانجليز والفرنسيين سيقومون معنا مؤيدين لنا . واذا بى فى نفس الوقت أتلقى عن طريق موظف خاص من السفارة الانجليزية رسالة من سالسبورى وزير الخارجية الانجليزية يقول لى بصراحة انه فى حالة قبولنا الحرب ضد روســيا فانهم لن يستطيعوا تقديم عون لنا »[١٥] .

« انجلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية وكان مدحت باشا لم يكتف باثارة ما أثار من مشاكل فهو من ناحية يريد خلق أزمة فى السراى ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد فى أتون الحرب. أعمال كهذه يمكن أن تؤدى — معاذ الله — الى تقويض الدولة من أساسها . كان الملك العثمانى يهتز من أساسه بناء على هـــذا كله ، كنت أرى أن الصدر الأعظم يؤيد الانجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى خاصـــة جدا به ولم أعد

---

(١٢) المصدر نفسه ص ٤٠ (١٣) المصدر نفسه ص ٤١

(١٤) نفس المصدر والصفحة . (١٥) نفس المصدر والصفحة

أحتمل ، فاستندت الى صلاحياتى فى القانون الأساسى وعزلته — أى مدحت باشا — عن الصدارة العظمى وأبعدته خارج الحدود »[١٦] .

ومع أن طلاب الاصلاح من العرب فى العهد الحميدى لم يفكروا فى مسألة الخلافة العربية فان السلطان عبد الحميد كانت تساوره الوساوس خشية أن يتجه قادة العرب الى احياء الخلافة فى بلادهم ، حتى صارت حكومته تمنع نشر أى كتاب من كتب الكلام أو العقائد أو الحديث أو التفسير يرد فيه ذكر الخلافة [١٧] وأخذ فى الوقت ذاته يدعو الى فكرة الجامعة الاسلامية لتقوية مركزه [١٨] ازاء تدخل الدول الأوروبية لاحباط أية مساعى لاحياء خلافة عربية وتودد الى قادة العرب بالكرم والهدايا النفسية[١٩] ويرى بعض الباحثين أنه لم يكن هناك ما يبرر مخاوف السلطان عبد الحميد من العرب رغم ظهور منشورات عدائية فى عام ١٨٨٠ فى بيروت لأن ما حملته تلك المنشورات لا يمثل رأى الكثرة الساحقة من العرب الذين ظلوا على ولائهم واخلاصهم للدولة العثمانية حتى بعد زوال عهد السلطان عبد الحميد .

ولكن لابد أن نذكر هنا أن خشية السلطان عبد الحميد من فكرة احياء الخلافة فى الأقطار العربية كان لها ما يؤيدها لا سيما اذا كان مصدر الفكرة السلطات الانجليزية الحاكمة فى لندن أو فى القاهرة . وكأنه — رحمه الله — كان يدرك بالحدس ، الخديعة الكبرى الكامنة خلف فكرة تتبناها بريطانيا لاحياء الخلافة العربية ، وهو عين ما تحقق عندما تجرع العرب خيبة الأمل بعد الوعود الكاذبة التى قطعت فيما بعد لشريف مكة الحسين بن على ، على لسان ماكماهون وكان حصادها

---

(١٦) المصدر نفسه ص ٤٣ — ٤٤

(١٧) المنار ، المسألة العربية ج ١ مجلد ٢٠ ، ٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٤٢

(١٨) لم تكن دعوة السلطان عبد الحميد لفكرة الجامعة الاسلامية نفاقا كما تزعم بعض المصادر وانما كانت دعوة صادقة منبثقة عن ايمانه وبحثه الجاد عن صيغة لتوحيد كل المسلمين لمواجهة الخطر الأجنبى الذى كانت تمثله كل من روسيا وانجلترا (راجع : محمد حرب عبد الحميد فى مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٩) .

(١٩) Zein, op. cit. p. 5.

ذهاب الخلافة العثمانية وخذلان القضـية العربية حتى فى صورتها العلمانية !!

أما مصر التى شغلت بالتدخل «البريطانى ــ الفرنسى» فانت نتيجة فى محنتها نحو السلطان العثمانى لانقاذها من التسلط الاستعمارى الأوروبى •

غير أن الدولة العثمانية واجهت ــ فى الربع الأخير من القرن التاسع ــ ثورة مسلحة على أحد ولاة السلطان العثمانى ، استقلت بالجزء الجنوبى من وادى النيل وهى الثورة المهدية فى السودان[٢٠] (١٨٨١ ــ ١٨٩٨) وقد كانت ثورة لها طابعها الاسلامى الخاص الذى يميزها عن الحركات القومية التى عرفت فى القرن التاسع عشر ولعلنا نلمس جانبا من طبيعتها فى نص الرسالة التى وجهها الخليفة عبد الله التعايشى (خليفة المهدى) الى السلطان عبد الحميد وجاء فيها :

« ومع كونك تدعى أنك سـلطان الاسلام القائم بتأييد سـنة خير الآنام نمالك معرضا عن اجابة داعى الله الى الآن ومقرا رعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع أهل الكفر والعدوان »[٢١] •

وقد يقال ان ظهور منشورات بيروت (١٨٨٠) وبوادر العداء التى ظهرت فى لبنان فى نهاية القرن التاسع عشر ضد الدولة العثمانية كانت بداية لحركة قومية تهدف الى الاستقلال عن السيادة العثمانية ولكن المؤرخين يؤكدون أن أثر المنشورات البيروتية كان ضعيفا على الجماهير وأن الحركة الانفصالية فى لبنان كانت بواعثها طائفية ولا يمكن اعتبارها حركة قومية عربية ضد حكم الأتراك[٢٢] ومع ذلك فان هـذه الحركة التى قام بها بعض الشبان فى لبنان منذ عام ١٨٧٦ انتهت بالفشل الكامل بين عامى ١٨٨٢ و ١٨٨٣[٢٣] •

---

(٢٠) لم يكن السودان تابعا تبعية مباشرة للدولة العثمانية ولكنه كان جزءا من ولاية محمد على بمقتضى تسويات عامى ١٨٤٠ ــ ١٨٤١

(٢١) مكى شبيكة ، تاريخ شعوب وادى النيل بيروت ١٩٦٥ ص ٧١٢

(٢٢) Zein, op. cit. pp. 41 - 42 - 46 - 47.

(٢٣) P. M. Holt, op. cit. p. 256.

فحديث بعض الكتاب العرب المعاصرين عن سيطرة الأتراك على العالم العربى باسم الوحدة الاسـلامية ووحدة الخلافة واعتبار ذلك نفاقا ، والحديث عن احتقار الأتراك للجنس العربى(*) (٢٤) ، هـذا الحديث تدحضه حقائق التاريخ بل هو نوع من الافتراض الذى يعوزه الدليل أو نوع من التأثر بحملة جائرة على الدولة العثمانية تزعمتها أقلام بعض الكتاب والمؤرخين الغربيين ومن اقتفى سيرتهم لدوافع سياسية أو مذهبية • وفى رأى الأستاذ هولت أن القصة التى تصف حكم الأتراك فى العالم العربى بأنه كان عهد شـقاء واضطهاد للعرب المغلوبين على أمرهم لا تعدو أن تكون أسطورة ربما كان العامل الأكبر فى ظهورها حكم جمال باشا فى سوريا خلال الحرب العالمية الأولى(٢٥) •

لا شك أن العلاقة قد ساءت بين العرب وجمعية الاتحاد والترقى خلال الفترة ١٩٠٩ — ١٩١٦ ولكن لا يجوز أن يتخذ ذلك دليلا على سوء العلاقات «العربية — التركية» مدى أربعة قرون ، أولا لأن فترة حكم جمعية الاتحاد والترقى (١٩٠٩ — ١٩١٨) تعتبر قصيرة للغاية بالقياس الى عمر الدولة العثمانية ، وثانيا لأن عهد هذه الجمعية كان نشازا فى تاريخ العلاقات بين العرب والأتراك • كذلك لا يجوز أن تتخذ معاملة عثمان رفقى وأضرابه من الشراكسة للجنود المصريين قبيل الثـورة العرابية دليلا على غطرسة دولة الخلافة العثمانية واحتقارها للعرب •

ان هـذا لا يعنى أن الأقاليم العربية كانت راضية عن أسلوب الحكم العثمانى فى العهد الحميدى لأنها كانت تحس بما ينطوى عليه

(*) لم تخل العلاقات العربية التركية فى مطلع القرن العشرين وربما قبل ذلك بقليل من بعض مظاهر الاحتقار للعرب من قبل بعض العنصريين الأتراك ، وقد تكون للفكرة الطورانية أثر فى ذلك ولكن ما يشير اليه أغلب الكتاب فى هذا الصدد انما كان فى المقام الأول ناجما عن تصرفات جمعية الاتحاد والترقى .

انظر : محمد عزه دروزة ، نشأة الحركة العربية الحديثة صيدا — بيروت ، منشورات المطبعة العصرية الحديثة ، ١٩٧١ ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ — ٣٠١ .

(٢٤) محمد مندور ، مؤتمر الأدباء العرب ، القاهرة ديسمبر ١٩٥٧ المجلة عدد رقم ١٣ ، يناير ١٩٥٨ ص ١٧ — ١٨ .

(٢٥) P. M. Holt, op. cit. p. 256.

هـذا الحكم من مواطن الضعف ولكن سبيلها الى معالجة الضعف لم تكن الثورة أو الانفصال بل الدعوة الى الاصلاح والى المساواة فى الحقوق بين العرب والأتراك • ان الكثرة الغالبة من سكان العالم العربى لم تكن تفكر فى الاستقلال • أما قادة العمل السياسى وأكثرهم من تلاميذ الأفغانى فكانوا يدعون الى تقوية الدولة العثمانية عن طريق الاصلاح الادارى واللامركزية وتصحيح العقائد والاعتصام بالرابطة الاسلامية والاسترشاد بتعاليم الاسلام النقية من الشوائب ومن أشهر هؤلاء المصلحين الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) وعبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٩ — ١٩٢٠) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ — ١٩٣٥) •

ويجدر بنا هنا أن نقف قليلا لنتبين طبيعة ما كان يدعو اليه هؤلاء المصلحون وما يدعو اليه أستاذهم جمال الدين الأفغانى •

ويحدثنا الشيخ محمد عبده عن أستاذه الأفغانى قائلا :

« أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى وهو ان لم يكن فى عقيدته مقلدا لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل الى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه • أما مقصده السياسى الذى وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعى اليه مدة حياته وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها فيعود للاسلام شأنه وللدين الحنيفى مجده ويدخل فى هـذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار المشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية وله فى عداوة الانجليز شئون يطول بيانها • أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى الا بنوع من الاشارة اليها • كل موضوع يلقى اليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه »[٢٦] •

كان الأفغانى الرائد الأول لحركة تحرير الوطن الاسلامى من

---

(٢٦) مقدمة محمد عبده : رسالة فى ابطال مذهب الدهريين بيروت ١٣٠٣ هـ ص ٩

الاحتلال الأجنبى ومؤسس الحركة الاسلامية المناوئة للاستعمار الغربى وهو الداعى الى فكرة الجامعة الاسلامية التى تهدف الى توحيد العالم الاسلامى واصلاح أوضاعه السياسية والاجتماعية وبث الوعى بين أبنائه وارشادهم الى حقائق دينهم وذلك استعدادا لتحرير دار الاسلام من الغزو الأجنبى[٢٧] وهو غزو حربى سياسى فكرى فى آن واحد ومن ثم كانت حملته على الحكام المسلمين فى عصره الذين وقفوا فى وجه الاصلاح أو تعاونوا مع سلطات الاحتلال الأجنبى •

وكان مبعث المحن التى واجهها فى مصر والآستانة وايران والهند دعوته الى التحرر السياسى الشامل والاصلاح الجذرى والنهضة الفكرية للشعوب الاسلامية ولم تكن الحرب التى شنتها ضده صحف الاستعمار الغربى فى ذلك الوقت سوى رد فعل لهذا النشاط الفياض الذى قام به الأفغانى فى عصر اتسم بالركود والاستسلام لسلطان الغرب • واذا كانت المنية قد عاجلته قبل أن يرى ثمرة غرسه فقد حمل الدعوة تلامذته من بعده وكان من أبرز هؤلاء الشيخ محمد عبده •

ان الاصلاح فى رأى الشيخ محمد عبده يقتضى تحرير العقل من قيود التقليد وتفهم المسلمين لحقائق دينهم ولطبيعة الحضارة المادية على السواء وكانت مجلة العروة الوثقى[٢٨] أقوى منبر لبث الآراء الاصلاحية التى كان يبشر بها الأفغانى ومحمد عبده فى العالم العربى والاسلامى • ولقد وجه الشيخ محمد عبده باعتباره محررا للعروة الوثقى نداء الى العلماء لاحياء الرابطة الاسلامية وتدارك الخلاف حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ودعا العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض للارتباط بعضهم ببعض والأخذ بأيدى العامة « الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان

---

(٢٧) راجع : محمود ابو رية ، جمال الدين الافغانى ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ و :

Encyclopaedia of Islam, New Ed. Vol. 2, pp. 416 - 418.

(٢٨) أصدرها الافغانى فى باريس فى ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ هـ/ ١٣ ، ١٨٨٤ وصدر منها ثمانية عشر عددا فقط .

والقيـــام بحاجات الأمـــة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها »[٢٩] .

واصلاح الأمة فى رأى محمد عبده « انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته وارشاد العـــامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق واتقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة »[٣٠] .

أما الأستاذ عبد الرحمن الكواكبى فهو من دعاة الوحدة الاسلامية والنهضة العربية ولكنه لا يرى فى سلاطين آل عثمان القدوة الحسنة للمسلمين لأنهم — فى رأيه — وضعوا مصلحتهم فوق مصلحة الاسلام . اتسمت مقالات الكواكبى « أم القـــرى » و « طبـــائع الاســـتبداد » بالدعوة الى اصلاح العالم الاســـلامى والنهضة العربية عن طريق العلم وبث الوعى بين الجماهير ومحاربة جمود الفقهاء ويبدو أن الكواكبى قد تأثر وهو يكتب عن طبائع الاستبداد بالصرامة التى مارس بها السلطان عبد الحميد سلطاته . وهو يعرف الاستبداد بأنه التصرف فى الشئون المشتركة بمقتضى الهوى ويذكر شيئا عن أسبابه وأعراضه ثم يتحدث عن الحرية السياسية فى الاسلام قائلا « ثم جاء الاسلام بالحكمة والعزم هادما للتشريك بالكلية ومحكما لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديمقراطية والارستقراطية فأسس التوحيد وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التى لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر وهـــذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم اماتة الاستبداد واحياء العدل والتساوى حتى فى القصص منه »[٣١] .

ويدل كتاب الكواكبى عن الاستبداد على سعة اطلاعه واحاطته بما كتبه الغربيون فى مجال العلوم السياسية والاقتصادية وهو لا يقبل

---

(٢٩) العروة الوثقى : دار البستانى ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١
(٣٠) العروة الوثقى : العدد الثالث ، باريس ٢٧ مارس ١٨٨٤ ص ٣
(٣١) عبد الرحمن الكواكبى : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، مطبعـــة الدستور العثمـــانى بشـــارع محمد على بمصر ص ٢١ — ٢٢ (لم يذكر تاريخ النشر) .

كل ما كتبه الغربيون عن الاستبداد ولكنه يناقش آراءهم ويفند بعضها استنادا الى ثقافته الاسـلامية .

وفى كتابه « أم القرى » عرض الكواكبى آراءه فى الاصلاح وفى نقد سياسة الدولة العثمانية وسلاطينها فى صورة حوار أجراه المؤلف على ألسنة عدد من الشخصيات التقت فى مؤتمر تخيله الكواكبى وجعل مقره مكة المكرمة وسمى ذلك المؤتمر « جمعية أم القرى » . ويبدو من هـذا الحوار تأثر الكواكبى بما قرأ من مؤلفات ومصادر غربية واقتباسه منها ولعل هـذا ما دفع بعض المؤرخين والكتاب المحدثين الغربيين الى تصـوير آراء الكواكبى بانهـا صـدى لأفكـار الكاتب الايطـالى « Alfieri Vittorio » وولفرد بلنت المؤرخ البريطانى[٣٢] .

ويشير برنارد لويس الى الكتاب الذى وضعه الفيرى عن الاستبداد (Della Tirannide) وترجمه الى اللغة التركية عبـد الله جودت ونشر فى جنيف لأول مرة سنة ١٨٩٨ وأعيدت طباعته فى القـاهرة سنة ١٩١٩ ، قائلا : ان هـذا الكتـاب كان — فيما يبدو — أساس أفكار الكواكبى التى ظهرت فى كتابه « طبائع الاستبداد »[٣٣] غير أن هـذه الآراء عن الكواكبى يجب أن تؤخذ بحذر كبير لاسيما عندما تصدر من كاتب يجاوز حدود النقد الموضوعى ليطعن فى أخلاق الكواكبى ووطنيته بغير دليل كالأستاذ خدورى الذى يرد « طبائع الاستبداد » الى الفيرى وينسب « أم القرى » الى « بلنت » ثم لا يقف عند هـذا الحد وانما يثير غبارا حول وطنية الكواكبى للايحاء بأنه كان عميلا للخديو عباس الثانى وعميلا لايطاليا لأن الكواكبى — كما زعم خدورى — زار الصومال

---

(٣٢) P.M. Holt, op. cit. p. 257.

وانظر أيضا Sylvia Haim , Arab Nationalism, An Anthology University of California Press, Berkeley, Los Angeles, 1962, pp. 25 — 27 .

(٣٣) B. Lewis, Islam in History, Alcove Press Ltd. London 1973 p. 279.

بالاتفاق مع ايطاليا[٣٤] ويقول خدورى انه استقى معلوماته عن هـذه الزيارة من رسـالة وجهها السيد رشيد رضا الى جورج أنطونيوس فى ١٠ يناير سنة ١٩٣٥ وأن هذه الرسالة موجودة فى أوراق أنطونيوس المحفوظة فى دار الوثائق الاسرائيلية[٣٥] .

حقا كان الكواكبى يرى أن للعرب دورا خاصا فى حركة البعث الاسلامى[٣٦] وفى ذلك يقول « فهذه هى الأسباب التى جعلت جمعية أم القرى تعتبر العرب هم الوسـيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينيـة بل الكلمة الشرقية »[٣٧] .

ويلاحظ أن الكواكبى يتحدث عن جزيرة العرب وأهلها بالنظر الى ما يسميه « السياسة الدينية » ولكن خدورى يزعم أن دعوة الكواكبى الى خلافة عربية ربما كانت دعاية سياسية لعباس حلمى الثانى وطموحه للاستئثار بحكم البلاد العربية[٣٨] وأن الكواكبى لهذا السبب كان عميلا للخديوى ، غير أن السيد رشيد رضا أبان لنا حقيقة موقف الخديو عباس حلمى بقوله « الا أن المفسدين كانوا يتهمون خديوى مصر عباس حلمى باشا بذلك فكان يسمع لهم لأن مصر بلاد عربية غنية بالمـال والرجال وقد تصدى رأس حكومتها الأخيرة « محمد على باشا » لحرب الدولة العثمانية فقهرها واستولى على سـورية والحجاز وتوغل فى الأناضول ولولا الانكليزية لاستولى على سـائر ممتلكاتها ، ولكن عباس حلمى لم يكن ليطمع بمثل ما طمع به جده الأعلى ولا بمثل ما كان يطمع به جده الأدنى « اسماعيل باشا » من الاستقلال السياسى بمصر والسودان فقط لمكان الاحتلال الانكليزى الذى جعـل السلطة الفعلية فى مصر بيد انكلتره دونه ولهذا كان الموسوسون والجواسيس يزعمون أنه على اتفاق

---

(٣٤) Elie Kedouri, Egypt and the Caliphate 1915 - 52, in the Chatham House Version and other Middle Eastern Studies, London, 1970 p. 195 .

(٣٥) Kedouri, op. cit. p. 424 (53)

(٣٦) عبد الرحمن الكواكبى — أم القرى : حلب ١٩٥٩ ص٢١٧ — ٢١٨

(٣٧) المصدر نفسه ص ٢٢٢

(٣٨) Kedouri, op. cit. p. 195.

مع الانكليز فى هذا الأمر وكان كثير من المصريين وغيرهم يصدق ذلك ومنهم من لم يرجع عن هذا التصديق الا بعد نشر كتاب « عباس حلمى الثانى » المورد كرومر اذ صرح فيه بأن حياة عباس مع الاحتلال كانت حياة خلاف وشقاق » (٣٩) •

وقد رأينا أن الكواكبى تحدث فى « طبائع الاستبداد » عن الحرية السياسية فى الاسلام وعن حكومة الخلفاء الراشدين وعما جاء فى القرآن من أمر بالعدل واجتناب للظلم ، فاذا أضفنا الى ذلك أن البيعة والشورى من المبادىء الأساسية فى الفقه الدستورى وأن الامامة فى رأى فقهاء المسلمين « عقد حقيقى » مبنى على الرضا(٤٠) ، فاننا ندرك أن الكواكبى كان فى غنى عن الاستعانة بالكاتب الايطالى لرفض الاستبداد بوجه خاص •

أما آراء السيد محمد رشيد رضا الحسينى فقد عبر عنها فى مجلته « المنار » وهو من المؤمنين بصلاحية الاسلام نظاما للحياة ولكنه يرى أن الاسلام فى حاجة الى بعث جديد ولعله من الطريف أن نستمع الى رأى الشيخ رضا فى الاصلاح الذى بدأ باسم التنظيمات فى الدولة العثمانية منذ عهد السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) لأن السيد رشيد رضا كان من أعلام الفكر العربى الاسلامى فى عصره وأحد قادة الحركة العربية الذين أخلصوا للدولة العثمانية ومحضوها النصح ثم ثاروا عليها بعد اليأس منها • انه أحد مؤسسى جمعية الشورى العثمانية — وهى أول جمعية سياسية تألفت فى نهاية القرن التاسع عشر فى الآستانة — وأحد الأعضاء المؤسسين لحزب اللامركزية الادارية العثمانى فى مصر عام ١٩١٢ • وفكرة التنظيمات التى تبنتها الدول الأوروبية فى القرن التاسع عشر تهدف الى تنظيم الجيش ونظم الادارة والحكم فى الدولة العثمانية على أسس غربية والخروج عن التنظيم الاسلامى للدولة

---

(٣٩) المنار ج ١ م ٢٠ ، ٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٣٧

(٤٠) محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية الطبعة الثالثة مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٠ ص ١٦٥ — ١٦٦ .

والمجتمع وتوجيه المجتمع نحو التشكيل العلمانى ومركزية السلطة فى القسطنطينية والولايات [٤١] .

ان اصلاح التنظيمات فى رأى رشـيد رضا كان اصلاحا شكليا عنى بالمظهر دون الجوهر ، فعد السلطان محمود مصلحا بتغيير الزى الرسمى ونظام الجندية والسلطان عبد الحميد مصلحا بانشـاء نظارة العدلية ومصطفى رشيد باشا مصلحا بادخال الدولة فى سـلك الدول الأوروبية ومدحت باشا وأعوانه مصلحين باقتباس القوانين الغربيـة ومحمد على باشا وأحفاده مصلحين بفرنجة البلاد المصرية ولم تتوجه همة واحـد الى اصلاح الأخلاق والعادات وجمع الكلمة التى فرقتها المذاهب واللغات « فما زاد الأمة ذلك الاصلاح الصورى الا ضروباً من الفساد وأن ما تم لم يكن علاجا لهذه الأمة وان كان أكثره ضروريا ، فالأمة بعد هـذه المعالجات لم تزدد الا مرضا وذلا وفقرا وضعفا وفسادا واسرافا فى النفاق وكان ما أدخل فيها من علوم الأمم القوية وقوانينها وآدابها كالجسم الغريب الذى يدخل البنية فيفسد مزاجها لأنه لم يكن على حسب استعدادها وحاجتها بل تقليدا صوريا أو عارضا وقتياً» [٤٢] .

ومن الطريف حقا أن يكون نقد السيد رشيد رضا للاصلاح الذى تم فى عهد التنظيمات شبيها بنقد نامق كمال (١٨٤٠ — ١٨٨٨) وأترابه . فالتنظيمات فى رأى نامق كمال كانت عملا شكليا لارضاء الغرب ومظهرا ليست وراءه ثمرة حقيقية وهو يأخذ على ساسة عهد التنظيمات أنهم أغفلوا القوانين الاسلامية ونقلوا الى تركيا صورة ممسوخة من قوانين الغرب لا هى غربية ولا هى اسلامية وليس لها أثر وتركت للسلطان سلطاته المطلقة دون قيد ويستطرد نامق كمال قائلا ان التنظيمات تحدثت عن صيانة الأرواح والممتلكات والحرية الشخصية ولكنها لم تذكر حرية الرأى وسيادة الشعب وحكم الشورى ولو أنها فعلت ذلك لاتخذت صورة ميثاق أساسى من أجل خلافة اسلامية ويقول أتراب نامق كمال

---

(٤١) محمد انيس : مرجع سابق ص ٢١٣

(٤٢) المنار ج ١ م ١٧ ، ديسمبر ٢/ سنة ١٩١٣ ص ٣ — ٤

أن التنظيمات أخذت من الشعب الحقوق التى كفلتها له الشريعة الاسلامية ولم تعطه شيئا من الحقوق التى تكفلها نظم الحكم الأوروبية وأن ساسة التنظيمات فتحوا البلاد للتدخل الأجنبى وأضافوا الى الاستبداد الداخلى الاستغلال الخارجى(٤٣) .

لم تكن الدعوة الى الاصلاح فى العهد الحميدى قاصرة على رجال السياسة وحملة الأقلام فى الأقاليم العربية وانما كانت جهادا مشتركا بين هؤلاء وبين دعاة الاصلاح من الأتراك أنفسهم وفى هذا يقول السيد رشيد رضا « ولكن أهل الرأى وحملة الأقلام من العرب لم يقصروا فى التعاون مع أمثالهم من الترك على السعى لاصلاح حال الدولة والقضاء على الاستبداد الحميدى فلما أسس شبان الترك جمعية الاتحاد والترقى ونشروها فى الولايات دخل فيها كثيرون من شبان العرب وكانت شعبها فى سورية أعظم منها فى غيرها وأسس بعض العرب جمعية أخرى كجمعية الاتحاد بعد ضعف شأن هذه فى مصر وسورية وهى جمعية الشورى العثمانية وأدخلوا فى لجنتها المركزية أشهر رجال الاتحاديين الذين كانوا فى مصر وغيرهم من العثمانيين فكان هم طلاب الاصلاح من العرب فى عهد عبد الحميد هو هم طلاب الاصلاح من الترك(٤٤) .

وحتى المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس فى شهر يونيو عام ١٩١٣ فى عهد الأتراك الاتحاديين لم يطلب الاستقلال عن الدولة العثمانية وانما حصر مطالبه فى الاصلاح الادارى وذلك على الرغم من أن الشبان الذين تولوا أمر عقد هذا المؤتمر كانوا من المتأثرين بالتفكير « العلمانى » وهم عونى عبد الهادى وندرة مطران وعبد الغنى العريسى وشكرى غانم وجميل معلوف ومحمد محمصانى وشارل دباس وجميل مردم(٤٥) . وقد وصف السيد رشيد رضا هذا المؤتمر بأنه أول مؤتمر

---

(٤٣) B. Lewic, The Emergence of Modern Turkey, O.U.P. 1968 , pp. 170 - 172 .

(٤٤) المنار : المسألة العربية جـ ١ م ٢٠ ، ٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٤٠

(٤٥) مقدمة الشيخ رشيد رضا لكتاب المؤتمر العربى الأول ، مطبعة البسفور القاهرة ١٩١٣ وايضا : Zein, op. cit. p. 186.

عربى عرف كثيرا من الأمم الغربية بالتاريخ الجـديد الذى دخل فيه العرب العثمانيون[٤٦] •

عقـد المؤتمر جلسـاته بين يومى ١٣ و ١٨ رجب سنة ١٣٣١ هـ (١٨ — ٢٣ يونيو ١٩١٣) فى قاعة الجمعية الجغرافية فى باريس وكان رئيس المؤتمر السيد عبد الحميد الزهراوى (مندوب حماة) • وقد وصفت رسـالة المؤتمر بأنها تمثل « تطلعات طبقة المتنورين لطرح رداء الخمول والأخذ بأسباب الحيـاة للافادة من القوى والخصائص التى خص الله بهـا رافعى معالم العمران من سـكان جزيرة العرب من عمومتهم فى العراق وما بين النهرين ووادى الأردن وسـهول الشام وجبالها وسواحلها ونجودها »[٤٧] وفى الحديث عن الأهداف وصف المؤتمر بأنه « وسيلة لحفظ كيان الأمة العربية وازالة العقبات عن طريق ارتقائها حتى يتسنى لها التهجز بأدوات الحضارة والانتفاع بتجاريب العلم فتقوى بذلك ويقوى مجموع الدول العثمانية بقوتها »[٤٨] ومن أهدافه أيضا « اصلاح أمور بلادنا على قاعدة اللامركزية • ومن المسائل التى طرحت للبحث الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال وحقوق العرب فى المملكة العثمانية وضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية والمهاجرة من سوريا واليها » •

وفى حديث لرئيس المؤتمر السيد الزهراوى مع محرر صحيفة الطان الفرنسية قال انه يتحدث بلسان العرب العثمانيين باعتبارهم أهم عنصر فى الدولة ويؤكد السيد الزهراوى أن المؤتمر ليست له صفة دينية وأنهم لا يريدون الانفصـال عن تركيا بل على العكس يطالبون بتحسـين حالة الدولة والعنصر العـربى معا لحفظ صرح الدولة من السـقوط[٤٩] وردا على سؤال آخر أجاب السـيد الزهراوى أنهم لا يتمسكون بالوحدة السياسية من أجل الرابطة الدينية بل رغبة منهم

---

(٤٦) رشيد رضا المصدر نفسه .
(٤٧) كتاب المؤتمر العربى الأول ص ٣ .
(٤٨) المصدر نفسه ص ٥
(٤٩) المصدر نفسه ١٩

« فى ايجاد مجموع عثمانى قوى يرتقى فيه مجموعنا العربى »[٥٠] وعندما سئل عما اذا كان هـذا الرأى يوافق رأى الشعب ، أجاب بأنه يترجم عن رأى « الفئة المتنورة » وبما أن هـذه الفئة المتنورة استطاعت أن ترى هـذا الرأى من غير أن يكون ذلك ما يمس مبادئها الدينيـة فلا أرى هناك مانعا يمنع الشعب من التوصل الى فهم هذه الحقيقة » •

اننا نلمح فى حديث السيد الزهراوى اتجاها علمانيا مشـوبا بكثير من الحذر •

لقد اتخذ المؤتمر العربى فى باريس عددا من القرارات ، منهـا المطالبـة باصلاحات جذرية وعاجلة فى الدولة العثمانية وبالحقـوق السياسية للعرب بصورة تمكنهم من المشاركة فى ادارة الدولة وادخال نظام لا مركزى ملائم فى كل ولاية عربية والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى البلاد العربية •

على أن المؤتمر العربى الأول لم يكن بداية العمل العربى المنظم للمطالبة بالاصلاح واللامركزية فقد سبقه عـدد من الجمعيات التى ظهرت فى القسطنطينية وبعض أجزاء العالم العربى خـلال الفترة (١٩٠٨ — ١٩١٣) منها جمعية الاخاء العربى العثمانى والمنتدى الأدبى (١٩٠٩) والعلم الأخضر والجمعية القحطانية (١٩٠٩) وجمعية بيروت الاصلاحية والنادى الوطنى العلمى فى بغداد وجمعية البصرةالاصلاحية والجمعية العربية الفتاة (١٩١١) وحزب اللامركزية الادارية العثمانى فى مصر (١٩١٢) ومن بعد ، جمعية العهد التى أسسها عـزيز على المصرى فى عام ١٩١٤ وكانت عضويتها للعسكريين وحدهم ومن بين الجمعيات سالفة الذكر تعتبر الجمعية العربية الفتاة وحزب اللامركزية الادارية العثمانى أهمها على الاطلاق [٥١] •

تأسست جمعية « الفتاة » عام ١٩٠٩ فى باريس وكانت تحمل اسم جمعية الناطقين بالضاد ثم غير اسمها الى الجمعية العربية الفتاة •

---

(٥٠) المصدر نفسه ص ٢٠ •

(٥١) Zein op. cit. pp. 93 - 96 .

كان المؤسسون لها الطلبة العرب ومنهم الأستاذ توفيق الناطور الذى أدلى بحديث الى الأستاذ زين نور الدين قائلا ان كل هدف هذه الجمعية كان الحصول على المساواة التامة فى الحقوق والواجبات بين العرب والأتراك فى نطاق الامبراطورية التى يرومونها أن تتكون من قوميتين تركية وعربية(٥٢) .

أما حزب اللامركزية الادارية العثمانى فكان أكثر الأحزاب العربية تنظيما والصوت المعبر بحق — كما يقول الأستاذ زين نور الدين عن الأمانى العربية . وخير من يحدثنا عن هذا الحزب وأهدافه الأستاذ رشيد رضا لأنه من أقطابه البارزين وأحد أعضائه المؤسسين . يقول السيد رشيد رضا : ان هذا الحزب تألف فى مصر فى عام ١٩١٢ بعلم الحكومة العثمانية لمطالبة الدولة العثمانية بتغيير شكل ادارتها فى المملكة كلها وان كان جميع مؤسسيه من العرب السوريين وجدير بالذكر أن حزب اللامركزية هو الذى نظم المؤتمر للعربى الأول وأسند أمر المؤتمر الى السيد عبد الحميد الزهراوى واسكندر بك عمون(٥٣) . وأن ما دفع بعض أهل الغيرة « على تأسيس حزب اللامركزية صوت سمعوه من باريس تذكر فيه فرنسا حقها فى سورية ، فهرع هؤلاء الغيورون الى رؤوف باشا المعتمد — القومسير — العثمانى فى مصر وكاشفوه بخوفهم على سورية أن تغير عليها فرنسا كما أغارت ايطاليا على طرابلس (ليبيا) وألفوا من أنفسهم لجنة للسعى الى الدفاع عن سورية وطلبوا منه أن يكتب الى الباب العالى بذلك يطلبون منه المساعدة على الاستعداد للدفاع الوطنى عن البلاد ولكن المعتمد لم يجبهم الى طلبهم »(٥٤) ويستطرد السيد رشيد رضا قائلا : ان حزب اللامركزية عثمانى محض ليس فى برنامجه ولا فى بيانته كلمة واحدة تدعو الى الجنسية العربية أو تنفر من الجنسية التركية وانما هو يدعو جميع العثمانيين الى مطالبة

---

(٥٢) Zein op. cit. p. 94.

(٥٣) المنار مجلد ١٧ ج ٢ ، ٣٠ ربيع الأول ١٣٣٢ هـ / ٢٥ يناير ١٩١٤ ص ٢٣٤ — ٢٣٥

(٥٤) المنار ج ٥ م ١٧ — ٢٥ أبريل ١٩١٤ ص ٣٩٥ — ٣٩٦

الحكومة بالادارة اللامركزية بالطرق المشروعة القانونية • نعم ان فكرته قد انتشرت فى العرب لأن المؤسسين له من العرب ولم يقدروا على نشر دعوتهم فى غير الشعب العربى(٥٥) • وقد تقدم الحزب بمشروع الى جمعية الاتحاد والترقى يشتمل على ضروب الاصلاح التى ينشدها الحزب كانشاء مدارس حكومية لتدريس اللغة العربية فى دمشق وبيروت واتخاذ العربية لغة رسمية فى الولايات العربية وغير ذلك

ان اتفاق ظهور هـذه الجمعيات الاصلاحية والأحزاب السياسية والعسكرية مع فترة حكم الأتراك الاتحاديين له دلالته العميقة وهى أن معالم القضية العربية أخذت تتضح فى صورة العمل الجماعى المنظم ولكنها لم تأخذ بعـد طابـع الحركـة الاستقلاليـة أو الانفصالية حتى عام ١٩١٦ وينفى السيد رشيد رضا عن العرب تهمة العمل للانفصال عن تركيا فى ذلك الوقت فى شىء من التفصيل ويوضح الأسباب التى دعت العرب الى المحافظة على وحدة الدولة العثمانية وهى أسباب تختلف كل الاختلاف عن الأسباب التى كانت تتذرع بها بريطانيا للمحافظة على تماسك الدولة العثمانية وحمايتها • وفى ذلك يقول السيد رشـيد رضا : « كان الترك يتهمون العرب بالميل الى الاستقلال دونهم والسعى لذلك وأنه لا يمنعهم منه الا ضعفهم وعجزهم أمام قوة الترك وقد ذكرت فى مقالات « العرب والترك » التى كتبتها فى الآستانة ونشرتها فى جرائدها ثم فى المنار أننى لا أعرف لهـذه التهمة أصلا الا ما كان من افتراء جواسيس السلطان عبد الحميد وطلاب المنافع عنده أو استغلال أوهامه بل أقول ان هذه التهمة لم تكن معقولة فى عهد السلطان عبـد الحميـد لأن النهوض بأمر الاستقلال اما أن يكون من جانب الأمة بما تتوسل بـه اليه من الجمعيات السياسية والعصابات المسلحة ولم تتصد الأمة العربية لذلك ألبتة واما أن يكون من جانب الأمراء المستقلين بالادارة فى بعض الأقطار أو من دونهم من الزعماء أصحاب العصبية ولم نعلم أن أحدا

---

(٥٥) المنار جـ ١ م ١٧ ص ٥٣٧

من أمراء جزيرة العرب أو من الزعماء فى الولايات العربية العثمانية كان مظنة أو موضعا لهذه التهمة »[٥٦] .

« وأما كبراء العرب فى ولايات سورية والعراق من العلماء والوجهاء فقد كانوا أشد تعصبا للترك من الترك أنفسهم[٥٧] . تلك حال كبراء البلاد وخاصتها والعامة تبع لهم لم يسمع لأحد منهم نبأة ظاهرة ولا دعوة خفية الى عداوة الترك أو القيام عليهم أو الاستعداد لتأسيس حكومة عربية تستقل فى البلاد اللهم الا ما كان قد قيل من أن شيعة الماسون كانت تسعى لجعل الأمير عبد القادر خديوياً لسورية »[٥٨] .

ويمضى السيد رشيد رضا متحدثا عن أسباب عدم تصدى العرب لانشاء دولة مستقلة لهم فى ذلك الوقت : « تبين مما شرحناه من الحقائق أن عدم تصدى العرب لانشاء دولة جديدة لم يكن سببه الخوف من قوة الدولة (العثمانية) كما كان يتوهم الترك ، فان العرب أقوى من اليونان والبلغار وغيرهما من الشعوب التى انفصلت عن السلطنة العثمانية وصارت دولا مستقلة ولم يكن سببه تفرق العرب وتعذر اتفاق أمرائهم وزعمائهم كما يتوهم الكثيرون منهم وانما كان السبب الصحيح لسكون العرب وسكوتهم عن طلب استقلالهم وتجديد دولة لهم هو الاسلام وأوروبة . دين الاسلام وسياسة دول أوروبة سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص فى صرف العرب العثمانيين عن السعى للاستقلال والحق أن الباعث الأخير لاعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسو حصنا لبقية البلاد الاسلامية فى وجه أوروبة »[٥٩] .

ويؤيد الأستاذ أسعد داغر ما ذهب اليه السيد رشيد رضا من

---

(٥٦) المنار ج ١ م ٢ — ١١ شوال ١٣٣٥ هـ / ٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٣٦ — ٣٧

(٥٧) المصدر نفسه ص ٣٨

(٥٨) المنار : المصدر نفسه والصفحة .

(٥٩) المصدر نفسه ص ٤١ — ٤٢

أن قادة الحـركة العربية لم يفكروا ـ قبـل أن يطفح كيل الأتراك الاتحاديين ـ فى الانسلاخ عن الدولة العثمانية قائلا :

« لم يكن شبان المنتدى الأدبى فى أول الأمر يفكرون فى الانسلاخ عن السلطة العثمانية بل كان غرضهم تقويتها بتقوية العرب الذين يؤلفون أكثرية سكانها والقيام بالاصلاحات اللازمة لرفع شأنها ودرء الأخطار المحدقة بها بالتعاون التام بين العنصر التركى الحاكم والعناصر العثمانية الأخرى ولا سـيما العرب ، وكان هـذا الرأى رأى عـزيز على (عزيز المصرى) وحزب العهد وجمعية العربية الفتاة وسائر الأحزاب والجمعيات السرية • أما حزب اللامركزية والجمعيات الاصلاحية فى بيروت والبصرة فكانت مطالبها تنحصر فى توسيع اختصاصات الولايات على قاعدة اللامركزية ولكن هـذه الآراء كانت تتبدل على نسبة التبدل الذى رافق السياسة التركية فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى وأستطيع أن أجزم الآن بأنه لم يكن بين العرب يوم اعلان تلك الحرب من فكر فى الانتفاض على الترك أو الاسـاءة اليهم بل كان تفكيرهم كله منصبا على محاولة منعهم من الاشتراك فيها والتعاون معهم على اجتناب ويلاتها ودرء أخطارها » (٦٠) .

غير أن سياسة جمعية الاتحاد والترقى ـ لاسيما بعد وقوعها تحت تأثير الدعوة الطورانية ـ ساعدت على تقوية الشعور بالذاتية العربية • والدعوة الطورانية التى اعتنقها قادة الأتراك الاتحاديين تهدف الى احياء العصبية التركية والجمع بين العناصر التركية التترية والشعوب المنتمية اليها كالشعب البلغارى وشعوب القوقاز وبعث النزعة العسكرية فى الأتراك • لم يكن قادة جمعية الاتحاد والترقى متأثرين بهذه الدعوة الطورانية فحسب بل كانوا يؤيدونها ويقـدمون لها الاعانات المـالية « وتسمى اعانات الملية التركية » وكان كبار قادة الاتحاديين أعضـاء

---

(٦٠) أسعد داغر : مذكراتى على هامش القضية العربية ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٩ ص ٧٠ ـ ٧١

منتمين اليها »[٦١] ومن هذه القاعدة استمدوا سياسة تتريك الشعوب العربية والشعوب العثمانية الأخرى •

ويحدثنا المراسل الخاص لشركة سنترال نيوز فى عام ١٩١٦ عن الحركة الطورانية قائلا « فى خلال بضع السنوات الأخيرة بدت فى بلاد تركيا طلائع حركة جديدة تعرف بنهضة « بنى طوران » أو الطورانية الحديثة وغرضها هدم المدنية الاسلامية واحياء العصبية التركية على أنقاضها والجمع بين العناصر التركية التترية والشعوب المنتمية اليها ومنها الأمة البلغارية • أما القائمون بهذه الحركة فهم قوم مشهورون بعدائهم للاسلام وتعصبهم عليه وكثيرا ما يجاهرون بأقوالهم وكتاباتهم بذلك الكره بحجة أن الاسلام يسعى لقتل العصبية القومية ويحول دون نشوء المدنية التركية ولذلك فهم يسعون لجعل الجنسية التركية مستقلة عن الاسلام كل الاستقلال • ومما يقولونه أيضا ان الاسلام لا محل له فى المدنية ولا يمكن أن يعيش طويلا الا اذا أدخلت عليه تنقيحات عديدة تلائم المذاهب التركية القومية • ولهذه النهضة وجهتان احداهما أدبية والأخرى سياسية • فغاية الوجهة الأولى تمجيد الشعوب الطورانية ونشر تاريخها المجيد ، وغاية الوجهة الثانية القضاء على العصبية العربية • فجنكيزخان هو فى نظرهم نموذج الملوك ورجال السياسية فكل مملكة ينشئونها يجب أن تقوم على المثال الذى رسمه • وأما العرب فى نظرهم فهم مصيبة على الأتراك ولذلك يجب القضاء عليهم أو ادماجهم فى العنصر التركى حتى ينسى العالم تاريخهم وتقاليدهم • أما لغتهم فلابد من محوها واحلال اللغة التركية محلها فى كل صقع وناد »[٦٢]

لم تكن الحركة الطورانية تحمل فى طياتها بذور العداء للعرب فحسب بل كانت جسورة على الطعن فى الاسلام والكيد له كما يشهد بذلك كتاب « قوم جديد » لمؤلفه عبيد الله أفندى الذى عينته جمعية

---

(٦١) المنار مجلد ١٩ ج ٤ ، ٢٨ سبتمبر ١٩١٦ ص ٢٢٥ — ٢٣٦

(٦٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥ ، عن الأهرام الصادرة بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٦

الاتحاد والترقى مدرسا فى جامع أيا صوفيا « وجعلوا حوله الجلاوزة والشرطة (البوليس والضابطة) يحمونه من اعتداء المسلمين عليه »(٦٣) .
وقد قامت مجلة المنار بترجمة أجزاء من كتاب « قوم جديد » وذكرت أن الكتاب يحرف القرآن وجعل الصيام والصلاة والحج والزكاة دين القدماء المسلمين وعبر عنهم بكلمتى « قوم عتيق » وصرح بعدم جواز العمل بكتب فقه الأئمة الأربعة وفى مقابل ذلك بين الكتاب أركان دين « قوم جديد » وهى العقل وكلمة الشهادة والأخلاق الحسنة والجهاد مالا وبدنا والسعى لاعداد لوازم الحرب بالاتحاد تحت راية الخلافة الاسلامية العثمانية . والاشارة فى كتاب « قوم جديد » الى الجهاد تحت راية الخلافة الاسلامية فى عهد الأتراك الاتحاديين تثير العجب لأن جمعية الاتحاد والترقى فضلا عما كان يحيط بها من شبهات فيما يتعلق بصلة قادتها باليهودية العالمية لم يكن يربطها بالخلافة الاسلامية سوى الاحتفاظ بخليفة رمزى لا يملك حولا ولا قوة .

كانت سياسة تتريك الأقاليم العربية واحياء العصبية الطورانية والكيد للاسلام ومساندة الصهيونية لتحقيق أطماعها فى فلسطين عوامل أساسية فى تحويل اتجاه القضية العربية على عهد الأتراك الاتحاديين نحو الاستقلال ، وساعد على ذلك الهزات العنيفة التى أصابت الدولة العثمانية فى ذلك العهد بين عامى (١٩٠٨ و ١٩١٣) والتى بدأت بمحاولة السلطان عبد الحميد استرداد مركزه والقضاء على جمعية الاتحاد والترقى ولكن محاولته لم تنجح وانتهت بعزله ونفيه فى ابريل سنة ١٩٠٩ وخلفه الأمير رشاد « محمد الخامس » ولكن السلطة الحقيقية ظلت فى أيدى زعماء الاتحاديين .

وخلال سنوات الحرب (١٩١٤ — ١٩١٨) أثمرت سياسة البطش والارهاب التى اتبعها أحمد جمال باشا حاكم سوريا وكانت ثمرتها الأولى ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية واتجاه العرب فى

---

(٦٣) المنار مجلد ١٩ ، ٣٠ يونيو ١٩١٦ ص ١٦١

الهلال الخصيب الى الاستقلال التام • وكان ذلك أخطر تحول فى المنطقة العربية منذ أن هبت عليها رياح الوعى السياسى فى نهاية القرن التاسع عشر • ودخلت القضية العربية مرحلة جديدة ، لم يعد العرب فيهـا عرب عثمانيين وانما أصبحوا يتطلعون الى استعادة مركزهم القيادى فى العـالم الاسلامى عن طريق تحقيق الاسـتقلال التام والوحدة الشـاملة •

لقد ثار العرب على الأتراك الاتحاديين بعـد أن استنفدوا كل وسائل التعاون فى سبيل الاصلاح مع جمعية الاتحاد والترقى وفى ذلك يقول السـيد رشيد رضا ان طلاب الاصلاح من العرب والترك كانوا « يشتغلون متعاونين والمواصلات بين جمعياتهم لا تنقطع ولا سيما جمعية الاتحاد والترقى فى أوروبة وجمعية الشورى العثمانية بمصر • ظلوا على ذلك الى أن ظفروا باعادة الدسـتور فظن العرب كما ظن غيرهم من الأجناس الذين تتألف منهم المملكة العثمانية أنهم فازوا بما جاهدوا فى سبيله الى أن قلب لهم المتغلبون على جمعية الاتحاد والترقى وعلى الدولة ظهر المجن وأوقعوهم فى هوة اليأس من الدولة »(٦٤) •

« وهوة اليأس من الدولة » هى التى دفعت الشريف حسـين ابن على وقادة الحركة العربية فى سـوريا الى الوقوع فى فخ الوعود البريطانية التى بدأت بمراسلات « حسين ــ ماكماهون » ، دون أن يعلموا أنهم مساقون الى أكبر خديعة فى تاريخهم الحديث •

وقبل أن ندخل فى الحديث عن طبيعة هـذه الخديعة وأبعادها يجدر بنا أن نذكر شيئا عن سياسة جمعية الاتحاد والترقى التى دفعت العرب الى الثورة ، وعن مصر التى ظلت منعزلة عن الثورة العربية فى الهلال الخصيب لأنها كانت تخوض معركة أخرى ضد الاحتلال البريطانى الذى ابتليت به منذ عام ١٨٨٢ •

كانت جمعية الاتحاد والترقى صاحبة السلطة الحقيقية فى الدولة

---

(٦٤) المنار مجلد ٢٠ ج ١/٣٠ يوليو ١٩١٧ ص ٤٠ ــ ٤١

العثمانية بين عامى (١٩٠٨ و١٩١٨) وهى الفترة التى نشطت فيها الجمعيات والأحزاب السياسية العربية داعية الى الاصلاح ولا مركزية الادارة ، وخلال هـذه الفترة اتسم حكم جمعية الاتحاد والترقى بالعنف والقضاء على الحريات ونفى زعماء المعارضة وأدت سياستهم الداخلية والخارجية آخـر الأمر الى تحطيم الدولة العثمانية وهزيمتها فى عام ١٩١٨ مع حليفتها ألمـانيا وتقسيم أقاليمها بين الغزاة المنتصرين .

لقد كانت جمعية الاتحاد والترقى موضع شبهات منذ وقت مبكر اذ اتهمت بأنها جمعية يهودية وأن أعضاءها لم يكونوا أتراكا ولا مسلمين غير أن الأستاذ برنارد لويس[٦٥] ، العالم اليهودى الشهير يعترض على هـذه التهم ويدافع عن جمعية الاتحاد والترقى ولا يخفى اعجابه بها لأنها مهدت الطريق لتركيا الحديثة ، تركيا العلمانية الكمالية[٦٦] . يقول الأستاذ لويس « لا يبدو أن هناك دليلا قط — فى كل ما كتب باللغة التركية عن الشبان الأتراك — أن اليهود لعبوا أى دور له أهمية فى مجالس الاتحاديين قبل الثورة أو بعدها ولا ما يثبت أن دور الماسونية كانت أكثر من أماكن استخدمها الضباط الاتحاديون من وقت لآخر لعقد اجتماعاتهم السرية»[٦٧] وثورة الشبان الأتراك فى رأس لويس — ثورة وطنية قام بها أتراك مسلمون لانقاذ الامبراطورية العثمانية من الأخطار المحدقة بها . ومع ذلك فان الأستاذ لويس لم ينف أن اليهود لعبوا دورا فى مجالس الاتحاديين ولكنه يصف هـذا الدور بأنه ليس بذى أهمية . ويبدو أن الأستاذ لويس لا يقيم وزنا كبيرا للتقارير المعاصرة التى كانت ترد من الآستانة حول طبيعة النفوذ الصهيونى على حركة تركيا الفتاة ومن هذه التقارير ما يرويه فيليب جريفز مراسل صحيفة التايمز البريطانية فى القسطنطينية قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى اذ يقول :

---

(٦٥) الأستاذ برنارد لويس أحد المستشرقين اليهود الذين اسهموا بنصيب وافر فى دراسة التاريخ والحضارة الاسلامية ، شغل منصب رئيس شعبة التاريخ وكرسى الأستاذية لتاريخ الشرق الأوسط فى جامعة لندن . من مؤلفاته « العرب فى التاريخ » و « ظهور تركيا الحديثة » و « الشرق الأوسط والغرب » و « الاسلام فى التاريخ » .

(٦٦) نسبة الى كمال اتاتورك .

(٦٧) B. Lewis, op. cit. p. 212 .

«ان اليهود نشطوا فى العهد الجديد (عهد تركيا الفتاة) وأصبحوا أداة اتصال هامة بين النظام الجديد (نظام الاتحاديين) وألمانيا وكان مركزهم الرئيسى فى سالونيكا وهى فى الوقت ذاته مركز نشاط جمعية الاتحاد والترقى » (٦٨) .

ويقول جريفز فى موضع آخر « ان الحكومة البريطانية علمت فى نهاية عام ١٩١٦ أن ألمانيا كانت تتجه الى كسب تأييد الصهيونيين مقابل عروض معينة تقدمها لهم كما ترددت أقوال مؤداها أن طلعت باشا ، الصدر الأعظم فى تركيا (هو أحد دعائم جمعية الاتحاد والترقى) اتصل بصهيونيين بارزين من الألمان واحايدين لنفس الغرض »(٦٩) .

ومن التقارير التى تحدثت عن علاقة جمعية الاتحاد والترقى بالصهيونية ما تلقته مجلة المنار فى القاهرة من مراسل خاص شهد الأحداث التى قضت على آخر محاولة لاعادة الحياة الدستورية الى الدولة العثمانية فى سنة ١٩١٣ نتيجة للانقلاب الذى قاده أنور بك فى مطلع ذلك العام فقد ذكر مراسل المنار فى تقريره أسماء الوزراء الذين تم تعيينهم فى وزارة محمود شوكت الصدر الأعظم وهى الوزارة التى جاءت الى الحكم عن طريق انقلاب أنور بك وضمت ثلاثة من الوزراء وصفهم التقرير على النحو التالى(٧٠) : « بساريا » أو « بانزاريا أفندى » ناظر المنافعة (أى وزير الأشغال) وكان رئيس تحرير « جون تورك — تركيا الفتاة » ومراقبا لما يكتب فيها من قبل الجمعية « وجون تورك » جريدة صهيونية . « نسيم مزلياح » ، ناظر التجارة والزراعة ومبعوث أزمير الاسرائيلى سابقا ومفوض الجمعية الصهيونية ، أما الوزير الثالث الذى وصف بأنه صهيونى فهو « جاويد بك » وزير المالية .

وعلقت مجلة المنار على هذا التقرير بقولها « ومما جاء مصدقا

---

(٦٨) Philip Graves, Briton and Turk, London, 1941. p. 137 .

(٦٩) Philip Graves, Palestine, The Land of Three Faiths, London, 1923 pp. 41 - 42 .

(٧٠) المنار ج ٢ مجلد ١٦ فبراير ١٩١٣ ص ١٥٦ — ١٥٧

لسوء ظننا فى الجمعية (الاتحاد والترقى) أنها جعلت فى وزارتها الجديدة ثلاثة وزراء من حزب اليهود الصهيونيين وجعلت فى أيديهم نظارة النافعة ونظارة الزراعة والتجارة أى ينابيع الثروة فى البلاد »[٧١] .

أما اذا نظرنا الى سياسة جمعية الاتحاد والترقى نحو الهجرة اليهودية الى فلسطين فى ضوء الوثائق الرسمية فاننا نجدها سياسة موالية للصهيونية ، بينما كانت السياسة التى درج السلاطين العثمانيون على اتباعها منذ عام ١٨٤٠ وحتى عزل السلطان عبد الحميد فى عام ١٩٠٩ على أيدى ضباط الاتحاديين لا تساوم ولا تتردد فى حماية فلسطين من الهجرة اليهودية ، مع السماح لليهود بزيارتها لأداء شعائرهم الدينية . ولعله من المفيد أن نقارن بين سياسة السلاطين العثمانيين وسياسة جمعية الاتحاد والترقى ازاء هجرة اليهود الى فلسطين . لقد كان اليهود منذ منتصف القرن التاسع عشر يستعطفون الحكومة البريطانية للضغط على سلاطين آل عثمان واغرائهم للسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين والاستقرار فيها وكانت رسالة بالمرستون وزير خارجية بريطانيا فى عام ١٨٤٠ الى السفير البريطانى فى الآستانة فى تلك السنة احدى نتائج هذا الاستعطاف ولكنها من ناحية أخرى كانت تمثل عزم الحكومة البريطانية على مقاومة النفوذ الفرنسى فى الشرق الأوسط لأنها كانت ترى فى تأييد فرنسا لمحمد على وهويسعى الى الاستيلاء على سوريا ، تهديدا لسلامة الامبراطورية العثمانية وايذانا بتقطيع أوصالها[٧٢] . وقد ورد فى رسالة بالمرستون :

« هناك شعور قوى بين اليهود المشردين فى القارة الأوروبية بأن الوقت الذى تعود فيه أمتهم الى فلسطين قد حان ومن ثم أصبحت رغبتهم أشد من ذى قبل فى العودة اليها وصار اهتمامهم أعظم بوسائل تحقيق هذه الرغبة ، ومن المعروف جيدا أن يهود أوروبا يملكون ثروة طائلة ومن الجلى أن أى قطر يختاره عدد كبير منهم للاقامة فيه سوف

---

(٧١) المصدر نفسه ص ١٦٠ .

(٧٢) L. Stein, The Balfour Declaration, London 1961 pp. 51 - 52 .

يجنى فائدة عظيمة من الثروات التى يجلبونها معهم الى ذلك القطر وسواء أقبل محمد على الأمر الأول أم الثانى (الذى سيعرض عليه قريبا) فانه من الأهمية الواضحة للسلطان أن يشجع اليهود على العودة الى فلسطين والاقامة فيها لأن الثروة التى سوف تتدفق اليها بمجيئهم ستزيد من موارد الأقاليم التابعة للسلطان • واذا عاد الشعب اليهودى الى فلسطين بدعوة من السلطان وباذنه وتحت حمايته فانهم سيكونون ترياقا مضادا لأية خطط شريرة قد يفكر فيها محمد على أو من يخلفه فى المستقبل »[٧٣] •

تلك هى توجيهات وزير خارجية بريطانيا الى السفير البريطانى فى القسطنطينية مستر بونسونبى عام ١٨٤٠ ، وفى رسالة أخرى طلبت الحكومة البريطانية من الحكومة العثمانية أن تسمح ليهود فلسطين ولليهود الذين يريدون الاقامة فيها أن يتقدموا بطلاماتهم الى السلطان العثمانى عن طريق السفارة البريطانية فى القسطنطينية ولكن الحكومة العثمانية لم تستجب لهذا الرجاء[٧٤] وفى ١٧ فبراير ١٨٤١ كتب بالمرستون مرة أخرى الى سفير بريطانيا فى القسطنطينية يحثه على الاتصال بالحكومة العثمانية لاقناعها بتغييرموقفها ازاء الهجرة اليهودية الى فلسطين حتى تسمح لليهود بالاقامة ولو لفترة محدودة كعشرين سنة مثلا[٧٥] •

وفى عهد السلطان عبد الحميد أصدرت الحكومة العثمانية أمرا قاطعا يمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين ابتداء من عام ١٨٨٤[٧٦]

---

(٧٣) Palmerston to Ponsonby F. O. 78 (No. 134) Foreign 11 Aug. 1840, Hyamson, The British Consulate in Jerusalem, London, 1939, Vol. I pp. 33 - 34 .

(٧٤) F.O. 195 /185 (No . 19) Constantinople, 21 Jan. 1841 Ponsonby to Pulmerston, Hyamson op. cit. pp. 35 - 36.

(٧٥) F.O. 78 (427) No 33 Foreign Office, 17 Feb. 1841 Palmerston to Ponsonby, Hyamson op. cit. pp. 37 - 38.

(٧٦) F.O. 78 (5479) No. (542) Sir N. R. O'conor to Marquess of Salisbury, Constantinople 13 Oct. 1898, Hyamson, op. cit . p. 529 - 531 .

ولكن سمح لليهود الأجانب الذين يقصدون الحج بزيارة فلسطين على ألا تجاوز اقامتهم فيها ثلاثة أشهر • وعندما أخطرت الحكومةالبريطانية رسميا بهذه القيود على اقامة اليهود فى فلسطين ، أعلن السفير البريطانى فى القسطنطينية سير وليام وايت عن رفضه لهذه الاجراءات ووعد حكومته بأنه سيبعث الى الحكومة العثمانية بمذكرة مشتركة يسانده فيها سفير فرنسا وسفير الولايات المتحـــدة الأمريكيـــة فى القسطنطينية يعترضون فيها على القيود التى فرضتها الحكومة العثمانية على الهجرة اليهودية • وفى ٢٨ مايو ١٨٨٨[٧٧] وجه السفير البريطانى الى الحكومة العثمانية رســـالة يطالب فيها بالغاء القيود التى تحدد اقامة اليهود الأجانب فى فلسطين ولكن حكومة السلطان عبد الحميد لم تستجب لهذا الرجاء ولم تكتف بذلك وانما رفضت أيضا تسجيل العقارات فى القدس باسم الاتحاد « الانجليزى ــ اليهودى » فاضطر السفير البريطانى أن يقترح على حكومته تسجيل العقارات بأسماء أشخاص من الاتحاد من غير اليهود حتى لا تعترض الحكومة العثمانية[٧٨] •

ويبدو أن القنصل البريطانى فى القدس لم يلتزم فى عام ١٨٩٨ بتنفيذ سياسة الدولة العثمانية فيما يتعلق بالهجرة اليهودية فبعثت وزارة الخارجية العثمانية فى ١٩ سبتمبر ١٨٩٨ بمذكرة الى السفارة البريطانية فى القسطنطينية توجه نظرها الى الأمر الصادر عام ١٨٨٤ بمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين وتطلب منها أن تصدر توجيهاتها الى القنصل البريطانى فى القدس ليمتنع عن وضع العقبات فى سبيل تنفيذ تلك السياسة [٧٩] وكان هذا القنصل ، جون ديكسون قد تلقى رسالة من الحاكم العثمانى لمدينة القدس يخطره فيها بصدور أوامر صارمة من

---

(٧٧) F.O. 195 /1607 Sir William White to G. Jackson Eldridge and N. T. Moore, Hyamson, op. cit. p. 443.

(٧٨) (No. 395) F. O. 195 /2026 , Hyamson, op. cit. Constantinople to John Dickson 25 Aug., 1898, Hyamson, op. cit. p. 518.

(٧٩) F.O. 78/5479 (N.V. No. 200) S.P.Le 19 Sept . 1898 A. L' Ambassade De S. M. B. , Hyamson op. cit. p. 531.

الحكومة العثمانية تمنع دخول جميع اليهود الأجانب فى فلسطين — بغض النظر عن الجنسية التى يحملونها — ما لم يقدموا ضمانا بمغادرة البلاد خلال ثلاثين يوما(٨٠) فرد القنصل بأنه ليست لديه توجيهات من حكومته فى هـذا الصدد وأنه سيقدم احتجاجا اذا طبق أمر المنع على اليهود من الرعايا البريطانيين (٨١) واحتجت الحكومة البريطانية على هذا المنع على لسان سفيرها فى القسطنطينية واعتبرته خرقا لما سمته بالحقوق التى كفلتها لهم معاهدتهم مع الدولة العثمانية بل ذهب السفير البريطانى أوكونور «N.R. O'Conor» الى أبعد من ذلك فى رسالته الى وزير الخارجية البريطانية سالسبرى حيث قال « ان الحكومة العثمانية أخذت تبدى مزيدا من الحزم فى ممارسة ما تدعيه من حق فى الحد من الهجرة اليهودية الى فلسطين وفى اعتقادى أنه من المرغوب فيه أن نخطر الباب العالى بالحدود التى يستطيع أن يمارس فى نطاقها ذلك الحق المزعوم » (٨٢) وكانت الحكومة البريطانية تأمل ألا يطبق أمر حظر هجرة اليهود الى فلسطين على اليهود البريطانيين ، علما بأن الهجرة اليهودية كانت تتدفق على فلسطين من جهات متعددة لا سيما من روسيا والنمسا وبولندا ولكن أوامر الحكومة العثمانية الأخيرة كانت صريحة فى حظر الهجرة على جميع اليهود الأجانب بغض النظر عن جنسياتهم ، ويبدو أن الحكومة العثمانية أصدرت فى عام ١٩٠٠ تعديلا يقضى بمد فترة الاقامة المسموح بها لليهود فى فلسطين الى ثلاثة أشهر كما كانت من قبل بدلا عن شهر واحد .

لم تكتف الحكومة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد باتخاذ

---

(٨٠) F.O. 195 / 2028 , John Dickson to The British Ambassador Constantinople, Jerusalem 24 Aug . 1898, Hyamson op. cit. p. 518 .

(٨١) F. O. 195 / 2028 (No. 41) John Dickson to M. De Bunzen Jerusalem, 25 Aug . 1898, Hyamson op. cit. pp. 518 — 19 .

(٨٢) F.O. 78 /5479 (No. 542) N. R. O'conor to Marquess Salisbury, Constantinople 13 Oct. 1898, Hyamson op. cit. pp. 529 - 30 .

هـــذه التدابير لحماية فلسطين من الهجرة اليهودية ولكنها أصدرت مزيدا من اللوائح فى عام ١٩٠٠[٨٣] لتشديد الرقابة على الهجرة وتشتمل اللائحة التى تسلمها السفير البريطانى فى القسطنطينية سير أوكونور فى نوفمبر عام ١٩٠٠ على أربع مواد • وبمقتضى هـــذه اللائحة يتعين على جميع اليهود القادمين الى فلسطين أن يسلموا جوازات سفرهم الى السلطات العثمانية التى تمنحهم بطاقات خاصة توضح مهنة كل زائر يهودى وجنسيته والغرض من زيارته كما تمنحهم اذنا مؤقتا بالاقامة والانتقال فى فلسطين لمدة لا تزيد على ثلاثة أشـــهر • ووضع نظام دقيق لمراجعة هـــذه البطاقات لمعرفة من يخالفون الأمر • كذلك نصت اللائحة على ابعاد كل من تجاوز اقامته المدة المقررة اما عن طريق الشرطة أو عن طريق القنصل المختص[٨٤] وحذرت اللائحة الموظفين الذين يقومون بتنفيذ الأمر من مغبة التهاون فى أداء مهمتهم •

ويفهم من هـــذا التحذير أن بعض الموظفين فى الادارة العثمانية قد يضعف أمام أساليب الاغراء التى كان يمارسها اليهود المهاجرون مع بعض الموظفين لدخول فلسطين بطرق غير مشروعة وقد أشار السفير البريطانى فى ملحق تقريره الى وزارة الخارجيـــة البريطانية الى أن اليهود كانوا يدخلون فلسطين عن طريق مينائى حيفا وبيروت لقاء رشوة يقدمونها للموظفين المختصين فى حدود خمسة جنيهات[٨٥] •

وجدير بالملاحظة أن الأمر العثمانى بمنع هجرة اليهود الى فلسطين صدر فى عام ١٨٨٤[٨٦] وشددت الرقابة فى عامى(١٨٩٨و١٩٠٠) وهذه التواريخ تتفق تماما والتحرك اليهـــودى الصهيونى لتنظيم الهجـــرة

---

(٨٣) F. O. 78 / 5479 , Enclosure 1 to No. 440 , Nov. 21 , 1900 Hyamson op. cit. p. 561 .

(٨٤) F. O. 78 / 5479 (No. 34)Sir Nicholas O'conor to Marquess of Lansdowne, Constantinople, 27 Jan. 1901, Hyamson op. cit . pp. 560 — 62 .

(٨٥) F.O. 178 / 5479 (Enclosure 2 to No. 440) Duplicate No. 7 Berut, Jan. 13, 1901, Hyamson op. cit. p. 562

(٨٦) وليس فى عام ١٨٨٨ كما ذكر آلان تيلر فى كتابه تاريخ الحركة الصهيونية تعريب بسام أبو غزالة ، بيروت ١٩٦٦ ص ١٣ .

اليهودية واستعمار فلسطين • ففى عام ١٨٨٢ شرع اليهود فى تأسيس مستعمراتهم فى فلسطين وهناك من يقول ان حركة استعمار فلسطين بدأت منذ عام ١٨٧٨ ولكنها لم تكن حركة منظمة ومن أوائل المستعمرات التى أسست فى ذلك الوقت مستعمرة «Petah Tikvah»ولكن حركة الاستعمار اليهودى المنظم بدأت فى عام ١٨٨٢ بتمويل البارون أدموند روتشيلد وهو أحد أثرياء اليهود الشهيرين فى باريس وبلغ عدد المستعمرات التى مولها البارون أدموند أربعة أضعاف ما أسسه اليهود الآخرون بجهودهم الخاصة(٨٧) وفى عام ١٨٨٢ نفسه نشأت حركة « عشاق صهيون » فى روسيا وكانت تدعو الى احياء اللغة العبرية واستيطان فلسطين وفى سنة ١٨٩٦ نشر كتاب « الدولة اليهودية » لتيودور هرتزل فى فيينا وتلا ذلك انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى « بال » بسويسرا عام ١٨٩٧ • ومؤتمر « بال » هو الذى وضع دستور الصهيونية وحدد أهدافها وهذا ما دفع هرتزل الى القول بأن « الدولة الصهيونية أسست فى « بال »(٨٨) ومن تلك الأهداف خلق وطن للشعب اليهودى فى فلسطين تحت حماية القانون العام »(٨٩) •

ولعل هذا النشاط الصهيونى فى نهاية القرن التاسع عشر يفسر لنا اهتمام السلطان عبد الحميد بمقاومة الهجرة اليهودية الى فلسطين وتشديد الرقابة عليها فى تلك السنوات مع أن السياسة العثمانية كانت واضحة منذ سنة ١٨٤٠ وهى تقوم على حماية فلسطين من الغزو اليهودى•

أما فى عهد جمعية الاتحاد والترقى فقد تغيرت سياسة الدولة العثمانية تغيرا تاما لصالح الصهيونية ووضح هذا التغير بصفة خاصة بعد انتهاء فترة الاضطراب السياسى الذى ساد فترة السنوات الخمس الأولى من حكم الجمعية (١٩٠٨ — ١٩١٣) •

---

(٨٧) Israel Margalith , Le Baron Edmond Rothschild Et La Colonisation Juive En Palestine, Paris, 1957, pp. II, 144-145.

(٨٨) Mrs. Blanche Dugdale, The Balfour Declaration Jerusalem 1940, p. 14.

(٨٩) Theodor Herzl : The Jewish State, 9th Ed. London, 1946 p. 5.

لقد ظل نفوذ الصهيونية ينمو فى دوائر الحكومة العثمانية منذ أن استولى الاتحاديون على السلطة وذلك عن طريق نشاط اليهود الألمان لاحراز مواقع للنفوذ اليهودى فى جمعية الأتحاد والترقى ومن ثم فتح الباب للهجرة اليهودية الى فلسطين(٩٠) وقد جاء فى رسالة للسفير البريطانى فى القسطنطينية سير جيرارد لوثر الى وزير خاجية بريطانيا سير ادوارد جراى مؤرخة ٢٤ ابريل ١٩١١ ، أن جميع البعثات الديبلوماسية فى القسطنطينية — بايعاز من السفارة الفرنسية — تقدمت الى الحكومة العثمانية بمذكرة حديثة تطلب فيها الغاء القيود القائمة التى تمنع اليهود الأجانب من امتلاك الأراضى فى مقاطعتى سوريا والقدس (أى فلسطين) ويفسر السفير البريطانى مبادرة السفارة الفرنسية فى هذا الموضوع بأنه — فيما يبدو — نتيجة لايعاز من أسرة روتشيلد اليهودية فى باريس عن طريق الحكومة الفرنسية(٩١) • وردت الحكومة العثمانية على هذه الرسالة بأنها تحتفظ لنفسها بحق التصرف لأن الموضوع من صميم شئونها الداخلية (٩٢) •

كذلك ذكر السفير البريطانى فى رسالته أنه تلقى برقية من وكيل الحكومة البريطانية فى القاهرة تفيد أن القنصل البريطانى فى غزة كان يقوم خلال الأشهر الثلاثة المنصرمة بشراء الأراضى بين العريش ورفح لصالح منظمة استعمارية يهودية •

ومن ناحية أخرى ذكر السفير أن بعض وزراء الدولة العثمانية — نقلا عن الصحف الصادرة بتاريخ ٢٤ ابريل ١٩١١ — هاجموا الصهيونية(٩٣) ووصفوها بأنها ضرب من الخيال وأنها ضد الفكرة العثمانية • وقد يفسر موقف الحكومة العثمانية — وفقا لما ورد فى تقرير السفير البريطانى — وتصريحات بعض الوزراء ضد الصهيونية

---

(٩٠) Sir Gerard Lowther to Sir Edward Grey No. 16084 with 9103 (No . 271) Gonstantinople 24 April 1911, Hyamson op. cit. pp. 576 - 577 .

(٩١) Hyamson, op. cit. p. 577 .

(٩٢) Hyamson, op. cit. p. 577 .

(٩٣) Hyamson, op. cit. pp. 576 - 577 .

فى عام ١٩١١ بأن هـذا هو الموقف الرسمى لجمعية الاتحاد والترقى وممن أخذ بهذا التفسير الأستاذ محمد رفعت [٩٤] والأستاذ أحمد طربين اذ يقول « ولما ثار فتيان الترك بالسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ تابع اليهود نشاطهم واعتقدوا أن موقف الاتحاديين سيكون أكثر تساهلا ومودة ولكن الحكومة الجديدة سارت على نفس سياسة عبد الحميد وتزايد عداء الحكومة العثمانية للصهيونية • وبدا جليا فى عامى ١٩١١ و ١٩١٢ عندما هاجم كثير من النواب الصهيونية وأوعزت الحكومة الى السلطات المحلية فى فلسطين أن تشدد الرقابة على تنفيذ الأنظمة التى تحظر على اليهود امتلاك الأراضى »[٩٥] •

غير أن ما حدث فى عام ١٩١٣ وما بعدها وأثبتته الوثائق الرسمية يؤكد أن سياسة جمعية الاتحاد والترقى كانت ــ على نقيض سياسة الدولة العثمانية لا سيما فى عهد السلطان عبد الحميد ــ موالية للصهيونية فيما يتعلق برفع الحظر على الهجرة الى فلسطين وامتلاك الأراضى فيها • ففى ٢١ ديسمبر ١٩١٣ بعث السفير البريطانى فى القسطنطينية سير ماليت تقريرا الى سير ادوارد جراى وزير الخارجية يحيطه بالنجاح الذى أحرزته الصهيونية بالغاء جوازات السفر الحمراء التى كان يتعين على اليهود الأجانب حملها عند وصولهم أرض فلسطين والتى كانت تحدد فترة اقامتهم فيها بثلاثة أشهر [٩٦] •

أما القنصل البريطانى فى القدس «McGregor»فقد كتب الى السفير البريطانى فى القسطنطينية فى ١٥ يناير ١٩١٤ يخطره رسميا بأن العقبات

---

(٩٤) محمد رفعت : قضية فلسطين « اقرأ » دار المعارف للطباعة والنشر بمصر : القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٦

(٩٥) أحمد طربين : محاضرات فى تاريخ القضية الفلسطينية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٢

(٩٦) Sir L. Mallet to Edward Grey, 1913 / No. 58134 with 6584 (No . 1023) Constantinople 21 Dec . 1913 , Hyamson op. cit . p. 583 .

فى سبيل الهجرة اليهودية الى فلسطين وامتلاك الأراضى فيها قد زالت بفضل موقف السلطات الذى يدعو للارتياح[٩٧] .

وقد زار جورجى زيدان — صاحب مجلة الهلال — فلسطين فى سنة ١٩١٣ ونشر عددا من المقالات[٩٨] فى مجلته يصف فيها مشاهداته فى فلسطين فتحدث عن السهول الخصبة بين حيفا واليرموك وقال « ان اليهود باذلون جهدهم فى ابتياع الأراضى فى فلسطين بكل وسيلة ممكنة بمساعدة الجمعية الصهيونية وأن غور بيسان كان معروضا للبيع فى صيف عام ١٩١٣ وقد احتج أعيان الوطنيين على الحكومة لما بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتا » [٩٩] .

ويواصل جورجى زيدان حديثه قائلا « ورغم احتجاج المسلمين والمسيحيين وغيرهم من الوطنيين على بيع الأرض لليهود فانهم يبتاعونها ويصلحونها ويغرسونها أو يبنونها ويعولون فى استعمارها على أحدث الطرق الفنية . شاهدنا فى يافا محلة أو مستعمرة اسرائيلية اسمها تل أبيب أدهشنا ما رأيناه فيها من نظام الشوارع واتقان البيوت فى بنائها على الطراز الصحى وقد شادت هذه المحلة شركة يهودية لسكنى اليهود وهى تؤجرهم اياها بطريق الاستهلاك بشروط سهلة بحيث يصبح المنزل لساكنه بعد مدة غير طويلة »[١٠٠] .

فكيف نفسر سياسة حكومة الأتراك الاتحاديين تجاه الهجرة اليهودية وامتلاك أراضى فلسطين فى عامى (١٩١١ — ١٩١٢) وموقفها فى

---

(٩٧) P.J. C. McGregor to Sir L. Mallet 1914 No. 16140 (No. 16 Conf.) Jerusalem, 15 March 1914, Hyamson, op. cit. p. 583.

(٩٨) نشرت هذه المقالات عن فلسطين فى الهلال ابتداء من العدد الصادر فى اول أكتوبر سنة ١٩١٣ السنة الثانية والعشرون حتى اول يونيو سنة ١٩١٤ (السنة الثالثة والعشرون) .

(٩٩) جورجى زيدان : رحلة صاحب الهلال الى فلسطين — الهلال ج ٧ السنة الثالثة والعشرون أول ابريل ، ١٩١٤ ص ٥١٧

(١٠٠) المصدر نفسه ص ٥١٨ .

عام ١٩١٣ وما بعده عندما رفعت القيود عن الهجرة اليهودية ؟ لعل تطور الأحداث السياسية فى الدولة العثمانية بين سنتى (١٩١١ و ١٩١٣) يعيننا على الاهتداء الى ذلك التفسير .

لقد كانت جمعية الاتحاد والترقى — بعد عزل السلطان عبد الحميد ونفيه الى سالونيك سنه ١٩٠٩ — تتطلع الى استقرار الحكم فى قبضتها ولكن تطلعاتها لم تتحقق لأنهـا واجهت معارضة عنيفة طوال عامى (١٩١١و١٩١٢) وشاهدت تحول الرأى العـام ضدها فظهر فى أوائل سنة ١٩١١ حزب مناوىء للاتحاديين يدعو الى دعم الحقوق المقدسة للخلافة والسلطنة وينادى بتعديل الدستور لتحقيق هـذا الهدف[١٠١] وفى ٢١ نوفمبر سنة ١٩١١ ظهر اتحاد الأحرار الذى ضم كل المعارضين لجمعية الاتحاد والترقى وكون معارضة برلمـانية ضد الاتحاديين فاضطر هؤلاء الى حل البرلمـان فى يناير عام ١٩١٢ واجراء انتخابات فى ابريل سـنة ١٩١٢ جاءت بمن يريدون وسميت انتخابات العصـا الغليظة[١٠٢] ولكن فى شهرى مليو ويونيو سنة ١٩١٢ تجمع عدد من الضباط فى القسطنطينية عرفوا بفرقة الانقاذ وكان من أهدافهم اسقاط جمعية الاتحاد والترقى وبرلمـانها وحكومتها واعادة الحياة الدستورية وفرضت هـذه الحركة تعديلا جذريا أدى الى تكوين ما سمى بالوزارة العظيمة برئاسة أحمد غازى مختار فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٢ التى حققت مطالب المعارضة فى ابعاد جمعية الاتحاد والترقى — مؤقتا — عن السلطة وحل برلمـانها فى ٥ أغسطس ١٩١٢ وكانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت مشغولة بحرب البلقان (أكتوبر ١٩١٢) وبالعدوان الايطالى على ليبيا (١٩١١) فدبر الاتحاديون انقلابا مضادا لاستعادة السلطة بقيادة أنور بك فى ٢٣ يناير سـنة ١٩١٣ وأسقطوا الوزارة العظيمة وقتلوا وزير حربيتها ناظم باشا وفى ١١ يونيو ١٩١٣ عادت جمعية الاتحاد والترقى الى السـلطة فى صورة دكتاتورية ثلاثية يتزعمها أنور وطلعت وجمال[١٠٣] .

---

(١٠١) B. Lewis op. cit. p. 220 .

(١٠٢) B. Lewis op. cit.

(١٠٣) B. Lewis op. cit. pp. 223 - 225.

ولخص أحد المراسلين المعاصرين للأحداث حالة الاضطراب التى سادت الآستانة بين عامى (١٩٠٨ و ١٩١٣) قائلا « منذ أربعة أعوام قلب الجيش حكم عبد الحميد وأنشأوا حكومة دستورية ثم قام الجيش فقلب تلك الحكومة ثم قام رجال تلك الحكومة فقلبوا بعض طوابير ذلك الجيش ثم عاد ضباط الجيش الكرة الرابعة منذ شهور وقلبوا ذلك الحكم فقام الاتحاديون اليوم وقلبوا حكومة ذلك الجيش وهى خامس ثورة حدثت فى أربعة أعوام فى سبيل القبض على الحكومة ليس غير »(١٠٤) .

فى مثل هـــذه الظروف التى نازعت فيها المعارضة سلطة الاتحاديين بل نزعتها منهم فى النصف الثانى من عام ١٩١٢ لا نتوقع من حكومة الاتحاديين أن تجد الأمن والثقة الكافية التى تمكنها من اتخاذ موقف ودى تجاه هجرة اليهود الى فلسطين ولكن موقفها وضح بعد حوادث ١١ يونيو ١٩١٣ ، لأنها قضت على المعارضة قضاء تاما وأصبحت صاحبة السلطان المطلق بقيادة الدكتاتورية الثلاثية التى أطفأت آخر قبس من الحرية على مسرح السياسة التركية وقادت الدولة العثمانية الى الدمار فى الحرب العالمية الأولى التى انتهت بهزيمتهم فى سنة ١٩١٨ .

هذا — فيما يبدو — هو التفسير الأرجح لنجاح الصهيونية فى عام ١٩١٣ مع قادة الأتراك الاتحاديين لرفع القيود عن الهجرة اليهودية الى فلسطين واباحة امتلاك الأرض الفلسطينية لليهود الأجانب على النحو الذى ورد فى تقرير سفير بريطانيا فى القسطنطينية وقنصلهـــا فى القدس .

أما مصر العربية العثمانية فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فقد تربع على عرشها اللورد كرومر (ايفلين بيرنج) منذ سنة ١٨٨٢ رغم تبعيتها الرسمية للخليفة العثمانى وكان كرومر يستمد سلطته فى حكم مصر من تفويض الحكومة البريطانية ، وقوته العسكرية ، من جيش الاحتلال المرابط فى أرض مصر ، ومن ثم كان الاحتلال الأجنبى المشكلة الكبرى التى واجهت مصر منذ ذلك الحين فوجه قادتها الوطنيون كل جهدهم لتحـــرير أرضهم فى اطار العلاقة

(١٠٤) المنار ج ٢ م ١٦ ص ١٥١ ، ٦ فبراير ١٩١٣

الخاصة التى تربط وطنهم بالدولة العثمانية قبل هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى وكان قادة الحركة الوطنية فى مصر قبل انفجار الثورة العرابية مدركين لطبيعة هـذه العلاقة ، لا سيما بعد المذكرة المشتركة التى بعثت بها الحكومتان البريطانية والفرنسية فى ٧ يناير ١٨٨٢ الى ممثليهما فى القاهرة تحمل تهديد الدولتين بالتدخل المسلح للابقاء على الوضع السياسى فى مصر وبالتالى لحماية مصالحهما • وفى ذلك يقول بلنت « ان نتائج المذكرة المشتركة أن بات الناس يتجهون نحو السلطان بصفته منقذا لهم وأصبحوا ينظرون الى عرابى أنه عضد السلطان فى مصر والملاذ الذى تتجه اليه أنظارهم لتحقيق آمالهم ، بعد أن يئسوا كل اليأس من توفيق »(١٠٥) •

ويقول الأستاذ محمد فؤاد شكرى « كان من آثار المذكرة المشتركة التى بعثت بها بريطانيا وفرنسا الى الخديو عن طريق ممثليهما فى القاهرة أن اعتبرها الثوار الوطنيون دليلا ماديا على عزمهما التدخل فى شئون بلادهم فزادت من تعلقهم بتركيا كمنقذ للبلاد على أساس أن السلطان العثمانى هو صاحب السيادة »(١٠٦) •

أما تأييد قادة الحزب الوطنى فى مصر للسلطان العثمانى فى عام ١٨٨٢ مع حرصهم على استقلال بلادهم فقد أثبته الأستاذ بلنت فى صحيفة التايمز البريطانية بتاريخ أول يناير سنة ١٨٨٢ عندما نشر بيانا تلقاه من بعض الزعماء الوطنيين منهم الشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى وعرابى • جاء فيه « يرى الحزب الوطنى المحافظة على الروابط الودية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ هـذه الروابط ركنا يستند عليه فى عمله ويعترف بالسلطان عبد الحميد كمتبوع وخليفة وامام للمسلمين ولا يريد تبديل هـذه الصلات والروابط ما دامت الدولة العلية فى الوجود »(١٠٧) •

---

(١٠٥) محمود الخفيف ، أحمد عرابى ، دار الهلال ج ١ العدد ٢٤٥ يونيو ١٩٧١ ص ١٧٠.

(١٠٦) محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان أو وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر دار المعارف — القاهرة ١٩٦٣ ص ١٩٩

(١٠٧) مكى شبيكة ، المصدر نفسه ص ٥٨١ — ٥٨٢

ظهر الحزب الوطنى المصرى فى ابريل سنة ١٨٧٩ ثم أعيد تكوينه فيما بعد بقيادة أحمد عرابى [١٠٨] • وبعد فترة اليأس التى تلت القضاء على الثورة العرابية وظهور مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) نشطت المقاومة ضد الاحتلال البريطانى بتشجيع الخديو عباس الثانى (١٨٩٢) الذى نال فى سنواته الأولى اعجاب الوطنيين وتقديرهم لنزعته الوطنية وحرصه على ممارسة سلطاته وقيادته لجبهة وطنية قاومت الاحتلال وكان من أعضائها مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد ، على أن صلته قد انقطعت بمصطفى كامل بعد الوفاق « البريطانى — الفرنسى » فى سنة ١٩٠٤ [١٠٩] •

كان ظهور مصطفى كامل معلما من معالم الحركة الوطنية فى مصر فقد ظهر كما قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى سنة ١٨٩٠ « على حين فترة من الحركة الوطنية وهجعة من الكفاح القومى وانحلال فى الروح المعنوية فنهض يدعو الى الحرية والاستقلال فى وقت تحالفت فيه عوامل اليأس وتضافرت أسباب الجمود والضعف • ودعا دعوته فبدأت غريبة عن الأذهان بعيدة عن الأفهام ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه وأقوى من العوامل المثبطة فأخذ يثابر على دعوته ويناضل عنها حتى استجابت الأمة لندائه » [١١٠] •

كان مصطفى كامل رمزا لتاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٨ وهى فترة حافلة باليقظة الوطنية والجهاد الذى لا يكل من أجل استقلال مصر واسترداد حريتها وكان سلاح مصطفى كامل فى هذه المعركة عزيمته القوية وقلمه المطواع وخطابته التى تأخذ بمجامع القلوب ، وكانت استراتيجيته تعبئة الشعور الوطنى فى الداخل واثارة الرأى العام الأوروبى فى الخارج ضد الاحتلال ، واحترام العلاقة

---

(١٠٨) Mahmud Zayid, The Origins of the Liberal Constitutional Party in Egypt, Political and Social Change in Modern Egypt. Ed. by P. M. Holt, op. cit, p. 334.

(١٠٩) المصدر نفسه ص ٣٣٦

(١١٠) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٣

الخاصة التى تربط مصر بالدولة العثمانية ، حامية الوطن الاسلامى من التدخل الأجنبى ، وهـذا ما دفع الوطنيين فى مصر الى التطلع الى الدولة العثمانية ـ خاصة بعد ضعف موقف فرنسا اثر حادثة فاشودة ـ (١٨٩٨) لمساعدتهم فى تحقيق الجلاء .

وكان مركز مصر الشرعى حتى سنة ١٩١٤ ـ وفقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ـ أنها خاضـعة للسيادة العثمانية[١١١] ، ولكن المشـكلة التى شغلت أبناء مصر منذ سنة ١٨٨٢ كانت الاحتلال البريطانى لا السـيادة العثمانية بل كان الوطنيون يخشون أن تزول السـيادة العثمانية عن مصر والاحتلال البريطانى جاثم على أرضها فتئول السـيادة بدلك تلقائيا الى دولة الاحتلال[١١٢] ، وعلى رأس هؤلاء الوطنيين كان مصطفى كامل الذى أصابه رشاش من التهم التى كالها الموالون للاحتلال البريطانى[١١٣] فوصفوه بأنه داعيـة الى نقل مصر من حكم الاحتلال الى الحكم العثمانى وقد رد عليهم :

« أما دعوتكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد وأنهم انما يطلبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت رحمة حكم جديد فهى دعوى لا يقبلها ذو لب ولا سلم بها أحد من العقلاء فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظـة من حياتنا » [١١٤] ، وقال مصطفى كامل فى خطبة ألقاها فى ٢١ يناير ١٩٠٧ « يستحيل علينا أن يطلب واحد منا ملكا أجنبيا عنا فنحن لا نود الا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ننصرها وتنصرنا ونعتز بها وتعتز بنا »[١١٥] .

---

(١١١) المصدر نفسه ص ٣٦٠.

(١١٢) الرافعى ، المصدر نفسه (نقلا عن الوقائع المصرية عدد ١٩ ديسمبر ١٩٠٤) ص ٣٦١

(١١٣) كانت مجلة المقطم وصاحباها ، يعقوب صروف وفارس نمر من الموالين للاحتلال وفقا للرواية آرثر جولد شميدت (Arthur Goldschmidt) The Egyptian, Nationalist Party , 1892 - 1919 Ed. By P.M. Holt, op. cit, p. 310.

(١١٤) الرافعى ، المصدر نفسه ص ٣٦٦ ، نقلا عن اللواء عدد ٢ مايو ١٩٠٦

(١١٥) المصدر نفسه ص ٣٦٧

ويروى الأستاذ أسعد داغر فى مذكراته أن مصر كانت ترى فى الأتراك اخوانا منقذين اذ يقول « وما يؤسف له أن العرب التابعين للسلطنة العثمانية لم يكونوا على تفاهم تام مع العرب الذين وقعوا تحت نير الاستعمار الأجنبى فمصر مثلا كانت تعانى من مظالم الانجليز وغطرستهم ما أنساها مظالم الترك (لعله يعنى الأتراك الاتحاديين) وجهلهم وفساد حكمهم وجعلها ترى فيهم اخوانا منقذين وخصوصا بعد اعلان الدستور العثمانى فى حين أن العرب الباقين تحت سيطرتهم كانوا ينظرون اليهم نظرهم الى أعداء مخربين قساة ظالمين • من أجل ذلك كان العرب شرقى قناة السويس مجمعين على كره الترك ومحاولة التخلص منهم بينما اخوانهم فى غربى القناة عقدوا كل آمالهم فى الخلاص من الأجانب على قوة تركيا ودهاء رجالها وقادة أمورها »[١١٦] •

ان حديث الأستاذ أسعد داغر — وقد عاصر الحركة العربية فى ذلك الوقت يعزز القول بأن قادة الحركة الوطنية فى مصر فى مطلع القرن العشرين كانوا يرون الأتراك منقذين لا أعداء متربصين وقد تجلى ذلك بوضوح فى حادثة العقبة أو « طابة » — كما تسمى أحيانا — عندما اعتزمت تركيا فى سنة ١٩٠٦ مد سكة حديدية من معان الى العقبة — وفى ذلك تقوية لتركيا على حدود مصر وتهديد لمركز الاحتلال البريطانى — فاعترضت بريطانيا ولكن القوات التركية احتلت موقع « طابة » فثارت ثائرة بريطانيا وتوعدت وهددت ، فوقفت الأمة المصرية الى جانب تركيا وهاجم مصطفى كامل بريطانيا وأثار الجماهير ضدها وأحست بريطانيا لأول مرة منذ عام ١٨٨٢ بأن مركزها مهدد فى مصر[١١٧] ويرى بعض الكتاب أن موقف مصر فى حادثة العقبة ربما كان له أثر فى الأحكام الصارمة التى أصدرتها محكمة دنشـــواى (٢٧ يونيو ١٩٠٧) على واحد وعشرين من المواطنين المصريين ، أعدم منهم أربعة[١١٨] ونفذ

---

(١١٦) أسعد داغر المصدر نفسه ص ٤٧

(١١٧) Arthur Goldschmidt, op. cit.

(١١٨) انظر تفاصيل الحادث والمحاكمة فى كتاب الرافعى : مصطفى كامل ص ١٩٩ — ٢٠٧

الحكم ببشاعة فاقت كل التصور ويذكر الأستاذ جولد شمت أن الغرض من هـذا الحكم كان ارهاب الوطنيين من دعاة الوحدة الاسـلامية وارغامهم على الاستسلام[١١٩] ولكن محاكمة دنشواى أكسبت مصطفى كامل مزيدا من التأييد ، وقد ندد بالحادثة وبالسياسة البريطانية فى مقالة شهيرة بعنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن » نشرتها جريد الفيجارو الفرنسية فى عددها الصادر بتاريخ ١١ يوليو ١٩٠٦ وكان من نتائج تلك المقالة ، اقالة لورد كرومر من منصبه ، فيما يروى الأستاذ عبد الرحمن الرافعى[١٢٠] .

كان اتجاه مصطفى كامل الوطنى والاسلامى امتدادا لدعوة الأفغانى وكان فى جهاده الوطنى يستلهم الاسلام ويدفع عنه افتراءات الأقلام الغربية على نحو ما فعل الأفغانى ومحمد عبده فى «العروة الوثقى» ولهذا الغرض أصدر صحيفة « العالم الاسلامى » فى أول مارس سنة ١٩٠٥ وجاء فى العدد الأول منها أنها صدرت :

« لنشر ما يهم العالم الاسلامى معرفته وترجمة ما تكتبه صحف الغرب ويقوله خطباؤه عن الاسـلام والمسلمين ليعرف كل واحد من أفراد الجامعة الاسـلامية ما يقال عن قومه وبنى دينه فينهض القاعد وينشط الكسـول ويخجل المتلاهى ويتفق المفترقون وبالجملة تقوم للأمة الاسـلامية قائمة » .

« أما الأكاذيب والمفتريات فان نشرها على المسلمين ينبه أفاضل علمائهم والغيورين من كتابهم للرد عليها فى الصحف التى صدرت فيها واقناع العالم المتمدن أنا لسنا كما يظن بعض رجاله ندين بدين يعـادى العلم والنور والاصلاح والنظام » [١٢١] .

---

(١١٩) Arthur Goldschmidt, op. cit. p. 320.

(١٢٠) الرافعى المصدر نفسه ص ٢٠٨

(١٢١) العالم الاسلامى ، العدد الأول ص ١ ، ٤ محرم سنة ١٣٢٣ هـ/ أول مارس ١٩٠٥ م .

وجاء فى رسالة لمصطفى كامل من لندن الى دام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة — التى مهدت له الاتصال بأشهر صحف فرنسا وكتابها — ما يلى :

« لندرة فى ١٨ يوليو ١٩٠٦ ..

« قرر مسلمو لندرة (لندن) مصريين كانوا أو أتراكا أو هنودا أو غيرهم وجميعهم من المثقفين اقامة احتفال عظيم مساء الثلاثاء تحية الى واحتفاء بى وسأخطب فيهم عن نهوض الاسلام »(١٢٢) .

ومن جراء نشاطه السياسى الذى غلبت عليه النزعة الوطنية الاسلامية تعرض مصطفى كامل لمضايقات شديدة من أنصار الاحتلال البريطانى والنفوذ الأجنبى ولنفسح له المجال ليحدثنا بنفسه عن هذه المضايقات فى رسالة بعث بها الى مدام جولييت جاء فيها :

« القاهرة فى ١٥ ديسمبر ١٩٠٥ ..

سيدتى العزيزة

أسألك العذر اذا لم أكتب اليك فى هذه اليومين فانى كنت فى حرب عوان . ذلك أن أعدائى أرادوا بذر بذور البغضاء بينى وبين الأوروبيين القاطنين فى مصر بما تقولوه على من أنى هجت فى « اللواء » أبناء دينى على المسيحيين وقد ناضلت مثبتا الضد وعلى ذلك عادوا بخفى حنين لما قدمته من البراهين على أنى انما أنتقد السياسة الأوروبية ولا أخص النزلاء الأوروبيين بالمسئولية عن خطة حكوماتهم ، الحادثة التى وقعت بشأنها المناقشة بسيطة جدا ليست الا مشاجرة سببها بعض رعاع اليونان مما جسم الأمر » (١٢٣) .

ويلاحظ أن توجيه هذا النوع من التهم الى الوطنيين لم يكن غريبا فى ذلك الوقت فقد اتهم أحمد عرابى من قبل على لسان لورد

---

(١٢٢) رسائل « مصرية — فرنسية » — ترجمة على فهمى كامل ، القاهرة ١٩٠٩ ص ٢٤٩ .

(١٢٣) المصدر نفسه ص ٢٢٩

جورج لويد بأن ثورته كانت تهدف الى اضطهاد المخـالفين له فى الدين :

« لو لم نتدخل لقمع الثورة العرابية لتطورت — دون شك — الى اضطهاد لا رحمة فيه لكل المخالفين له فى الدين وكان على السلطات البريطانية أن تحـذر تعصب السـكان واستعدادهم لتصـديق كل ما يقال لهم » (١٢٤) •

لقـد كان مصطفى كامل يعتبر الحزب الوطنى ، حزب الجلاء ، موجودا منذ بدأت الحركة الوطنية فى مصر ولكنه اتجه قبل وفاته ببضعة أشـهر الى تنظيمه ودعا الى أول جمعية عمومية للحزب فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ولكن المنية عاجلته فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ فخلفه على رئاسة الحزب محمد فريد (١٨٦٧ — ١٩١٩) وقد أخذت سلطات الاحتلال بعد تقاعد كرومر (مايو ١٩٠٧) وتعيين جورست «Eldon Gorst» تعمل على اضعاف الحركة الوطنية عن طريق انشاء أحزاب جديدة كحزب الأمة (١٩٠٧) الذى كان يضم كبار الأثرياء ويدعو الى التعاون مع سلطات الاحتلال ونبذ أفكار دعاة الوحدة الاسلامية »(١٢٥) •

وعندما هاجمت ايطاليا ليبيا فى سنة ١٩١١ وخلف كتشنر جورست على دار العمادة فى مصر كان الحزب الوطنى يجمع التبرعات لمجهود الدفاع التركى ثم واجه الحزب موجة من الاضطهاد من قبل السلطات البريطانية الحاكمة وانتهى نشاطه بنشوب الحرب العالمية الأولى • وقد رأينا أن التمهيد للاتصال مع شريف مكة بدأ قبل اندلاع الحرب بوقت قصير وهو التمهيد للخديعة الكبرى التى واجهها العرب فى مصر والهلال الخصيب فى وقت واحـد •

* * *

---

(١٢٤) Lord G. Lloyd, Egypt Since Cromer, Macmillan & Co. London, 1933, Vol. 1 p. 36.

(١٢٥) Arthur Goldschmidt, op. cit. pp. 321 - 22.